# عروس الفرات

رواية

علي المؤمن

مؤسسة الرسول الأعظم العلمية

دار روافد

**الرواية:** عروس الفرات

**تأليـف:** علي المؤمن

**الناشر:** مؤسسة الرسول الأعظم العلمية – النجف الأشرف

**الرقم الدولي:** 978-614-426-687-8

**حقوق الطبع محفوظة**

**الطبعة الأولى 2016**

**الطبعة الثانية 2017**

**يمنع إعادة طباعة الكتاب أو نشر نصوصه في الصحف أو على شبكة الانترنت أو الأقراص المدمجة إلا بإذن مسبق من المؤلف**

مؤسسة
الرسول الأعظم
العلمية

العراق - النجف الأشرف

E-mail: alrasool.alaazam@hotmail.com

دار روافد
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت – لبنان
ت: 71/868980
darrawafed@yahoo.com

التنفيذ الطباعي - دار المحجة البيضاء

# عـروس الفـرات

(روايـــــة)

علـي المؤمــن

دار روافد

مؤسسة
الرسول الأعظم
العلمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# مرافئ عروس الفرات


فرحتان ..... ٧

يوم آخر ..... ٢٠

الجريمة ..... ٥٥

الوداع الأخير ..... ٧٥

في جبهة الحرب ..... ٩٥

الدار الخالية ..... ١٤١

ثمن الحياة ..... ١٨٥

عروس الفرات ..... ٢١٨

# فرحتان

١

في محلة «الحويش»، تلك المحلة النجفية الممتدة في حدود الزمان، الموغلة في عمق التاريخ..

وفي بيت قديم، عشَّشت في شقوق حجارته العتيقة طيور اليمام البني.. قائم وسط حديقة، تناثرت في حوضها الأزاهير؛ فتناغمت فيها الألوان، وانصهرت الروائح لتنتشر في كل ناحية. وهناك سور الحديقة ذو البوابة السوداء بقضبانها الدقيقة؛ تآكل بصدأ الأيام، وزخر بغبار السنين، فبدا وكأنَه مثقل بهموم الدهر. أما غرفه فعديدة، وعالية السقوف، وقد اتسعت فيها الشبابيك، حيث تزورها أشعة الشمس منذ شروقها، وحتى تغيب. وقد أضفى عليه الطابع المعماري العراقي ألواناً من التراث، زادته رونقاً، وأغنت معالمه حسناً.. إذ لم يخل جدار فيه من صورة لمنظر طبيعي أو باقة زهور، أو رمز يحبه أصحاب الدار.

هناك.. في ذلك البيت الذي يزهو بالحياة الحلوة؛

سكنت عائلة «عبد الرزاق» المتآلفة بالمحبة، الزاخرة بالآمال..

وكالكثير من الأسر الأصيلة المنتشرة هنالك، فإنّ سقف ذلك البيت قد ضم تحته ثلاثة أجيال معاً: عبد الرزاق، وزوجته حليمة «أم عادل» وأولادهما الخمسة، وأحفادهما الثلاثة، إضافة إلى زوجتيْ ولديهما البكر.

كان الصباح يشتّتهم عن بعضهم كُلاً إلى ما يشغله، فلا يكتمل نصابهم إلاَّ بعد غروب الشمس..

لذلك كانت مائدة العشاء تشكّل على الدوام موعداً لاجتماعهم اليومي، حيث يتفلَّتون من قيود نهارهم، ويتفرّغون لبعضهم بعضاً، ويتجاورون عن كثب، حول تلك الطاولة الخشبية العتيقة المستديرة المغطَّاة بشرشف أبيض، طرّزته أم عادل على ماكنتها الهرمة، منذ سنوات، ورصّعته بالورود الزاهية الألوان؛ فتفرد أصناف شتى من الأكلات النجفية التي تقضي أم عادل نهارها في تحضيرها، فيأكلون بشهية، بينما يتناولون من ألوان المرح. وتكون الفرصة سانحة بعدها؛ ليقضوا ساعة أو ساعتين، وهم يتسامرون، ويتبادلون الحديث في المجالات المختلفة من شؤونهم الخاصة، وقضايا المجتمع، إلى العلم والثقافة والدين والسياسة وسوى ذلك..

أكثر ما كان يثقل بالهم شأن الأوضاع السياسية في البلد؛ حيث كانت أصوات الجميع تنخفض أثناء الخوض فيها، وكثيراً ما كان أبو عادل يقطع عليهم المسار بقوله:

ـ للحيطان آذان..

وفي ليلة ربيعية هادئة، تسللَت خيوط قمرها الفضي من الشبابيك الشرقية، وانسابت نسمات باردة تداعب الوجوه..

كان أفراد الأسرة يحلقون كعادتهم حول عدة الشاي، حيث راح الإبريق يعلو، ويهبط، والأكواب تُوزَّع على الكبير والصغير، وصدى الملاعق يرن، إذ كانت تذيب السكر..

جلس أبو عادل باسم الثغر، وراح يمعن فيهم النظر واحداً واحداً، وهو يجدِّد الشكر لله على ما أنعم به عليه..

كان أستاذاً في كلية الفقه؛ حيث درّس مادة التاريخ لخمسة وعشرين عاماً.. وأُحيل إلى التقاعد منذ حوالي العشر سنين..

يؤمن أبو عادل بحرية الرأي، ولكنه كان يعجز عن ترجمة إيمانه هذا غالباً. كان شرطه الوحيد حب الوطن، والعمل على ازدهاره.

كبر الأولاد، وأراحوه من عناء العمل، فلازم البيت.. يطالع الصحف والمجلات والكتب، وأحياناً ينجز بعض

الكتابات الثقافية التي لا تجد من ينشرها؛ لأن كل شيء هناك يحمل لوناً واحداً، وهو يعشق تعدد الألوان. وهذا ما كان يشعره على الدوام بلحظات من القلق، لا يعرف له تفسيراً..

أكثر من كان يوقظه من تأملاته الأطفال..

إذ تصرخ آمنة:

ـ جدّي.. جدّي.. علي ضرب لعبتي فبكت..

ويعترض علي:

ـ لقد أكلَتْ اللعبة يا جدِّي من علبة البسكويت.. وبعثرت الباقي..

فيضحك ابو عادل، ويملِّس على شعر اللعبة بيده مهدئاً من روعها، ويقبِّل الطفلين، ويصالحهما..

كان في أواخر عقده السابع، وقد برز على ملامحه عناء السنين، الذي حفر على وجهه الأسمر آثاراً وأخاديد، وزاد في بياض شعره اشتعالاً، ومن جسده المنهك نحولاً..

إلى جانبه جلست أم عادل..المرأة البسيطة الحنون، التي رافقته أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، وما زالَت شريكته في معركة الحياة..

وقد نام في حجرها الدافىء حفيدها هشام، ذو الثلاث

سنوات، وكان يغطّ في نوم عميق هانىء، بعد يوم طويل من العبث واللعب..

وإلى جانبها جلس ولدها عادل، أبو هشام، وهو الابن الأكبر للأسرة، رجل ثلاثيني لا تفارقه الجدية، يعمل طبيباً في مستشفى حي السعد..

وكانت تتخذ مكاناً إلى جواره شيماء؛ البنت الوحيدة للعائلة؛ طالبة في السنة الثانية في كلية طب الكوفة، وقد قاربت عقدها الثاني من العمر، كانت باسمة الثغر أبداً..

إلى جانبها كانت تجلس زوجة عادل، نور، مع ابنتها البكر آمنة..

وقد احتل الجانب الأيسر من المكان أحمد، أبو علي؛ الموظف في مديرية شرطة النجف، والذي يصغر عادل ببضع سنوات، وإلى جواره جلست زوجته ياسمين.

وكان إلى جوارهما ياسر، أصغر الأولاد سناً، يطالع دروسه غير عابىء بما يدور من حوله، هو طالب في المرحلة المتوسطة..

أما صلاح، الابن الثالث، فكان يتنقل بين غرفته ومائدة الطعام.. يأتي بكتب ومجلات؛ ليطلع عليها شيماء؛ التي تستعين به لكتابة بحث للجامعة. وصلاح تخرج تواً مهندساً كهربائياً ويطمح أن يؤسس شركة في اختصاصه.

وكان علي، الابن الوحيد لأحمد، يتنقل هنا وهناك كالفراشة؛ فيسرح ويمرح بين جده وجدته ووالديه وأعمامه وعمته، ولا يكف عن المزاح واللعب مع ابنة عمه آمنة. لم يكن عمره يتجاوز الخامسة. كانَ جده يدعوه «عفريت البيت»؛ لأنه لا يكاد يمشي على الأرض، بل أكثر ما كانَ يتنقل فوق المقاعد، فيقفز من واحد إلى آخر، وكثيراً ما يتعلَق متأرجحاً بمسكات الأبواب والشبابيك، ويحاول الأطفال الباقون تقليده، فلا يستقر جو البيت إلاَّ إذا نام علي..

أما جدته أم عادل، فما كانت تسمح لأحد في البيت أن يرشق الأطفال ولو بوردة.

وفيما كان الجميع منشغلين بالحديث، فجأة تذكرت ياسمين شيئاً:

ـ فاتني أن أقول.. إن سعيد ابن خالتي اتصل عصر اليوم تلفونياً، وقال إنّ أهله سيأتون لزيارتنا غداً مساء.

سُرّ الجميع بذلك، في حين تساءلت شيماء، وهي توجّه نظرها إلى شقيقها صلاح، وكأنها تتحرش به:

ـ وهل ستأتي خالتي مع العائلة جميعها؟ أقصد ألم يقل لك؟..

فقاطعها أحمد مازحاً:

ـ تقصدين.. هل زهراء ستأتي معهم؟

قالَت الأم وهي تحاول تخفيف وقع المزاح على صلاح الذي أطرق مبتسماً بحياء:

ـ زهراء ستكون معهم بالتأكيد..

فقاطعتها أم علي، موضحة أنها سألت عامر عن ذلك، فقال إن زهراء لا تستطيع المجيء. وهنا عاد أحمد للقول:

ـ لا لا!.. مع الأسف الشديد!

ثم تنحنح ونظر إلى أخيه صلاح:

ـ بسيطة جداً.. لا تهتم يا عزيزي صلاح.. أيام ويلتئم الشمل.. شمل الأحباب إلى الأبد.

وانفجر الجميع بالضحك، وهم يرددون: «إن شاء الله.. إن شاء الله».

بعد برهة من الصمت المصحوب بالهمهمة والمزاح بين أحمد وصلاح، توجّه أبو عادل إلى أم عادل بالقول:

ـ أرى أنّ مجيء عائلة أختك غداً فرصة مناسبة لتحديد موعد عقد القران.

رحب الجميع بالفكرة، وخاصة أم عادل، التي التفتت إلى ولدها صلاح لمعرفة رأيه، فأجاب صلاح بحياء:

ـ والله يا أمي ليس هناك ما يمنع حالياً.

وصمت فجأة، ثم استأنف القول:

ـ ولكن!..

فقاطعه أحمد وهو يتصنع الجدية:

ـ يا ياويلتاه يا جماعة.. لقد نفد صبر الرجل. فلماذا التأخير إذن؟!

وبينما انفرجت أسارير الجميع بالابتسامات، قال صلاح:

ـ ما الذي تقوله يا أبا علي؟.. الأمر ليس كما تتصور!

ـ نعم!.. نعم!.. كانَ الله في عونك.. أراك تذوب حياءً.

وهنا بادر عادل إلى القول:

ـ صحيح يا أبي.. الوقت مناسب جداً، فلنجعل هذا الموسم موسم أفراح.

قالت شيماء، وهي تحرك يديها بانفعال وتربت بها على كتف صلاح:

ـ والله إنّها لفكرة رائعة.. موسم أفراح! إننا ننتظر يوم عقد قرانك بصبر نافذ يا أخي الحبيب.

ـ إذن هذا رأيكم جميعاً، اتفقنا، سنحدد غداً مع أبي سعيد وأم سعيد موعد مراسيم العقد.

قال هذا أبو عادل، وهو ينظر إلى زوجته، وكأنه يطلب منها ان تقول كلمتها الاخيرة.

فحبّذَت أم عادل أن يكون الموعد يوم الجمعة من الأسبوع القادم. فبادرها صلاح بالقول:

ـ عفواً يا أمي، أنا أردت الحديث عن هذا الموضوع، إلاَّ أن أحمد لم يتركني أكمل.

فقاطعه أحمد ثانية:

ـ أعرف، أعرف يا عزيزي!.. أنت متعجل جداً، وتريد أن يكون الموعد الخميس القادم، أي بعد يومين فقط.

ووسط ضحكات الجميع، قال صلاح مخاطباً أحمد:

ـ يا أبا علي، أرى أن توفر جزءاً من مزاحك ليوم العيد، حتى لا تنفد ضحكاتك، ثمّ إني أردت أن أقول عكس ما تفضّلتم به سيادتكم!

فأجابه أحمد متصنعاً الاندهاش:

ـ يا إلهي! هل تريد أن يتم العقد غداً؟!

واستغرق الجميع بالضحك، في حين كان صلاح يتلقى مزاح شقيقه أحمد بارتياح، وحياء في الوقت نفسه، وبمزيد من الابتسامات، لأنّ أحمد يكن لصلاح حباً خاصاً؛ فهما صديقان وشقيقان، وكل منهما أمين سر الآخر.

ـ دعني أكمل فقط، ثم قل ما بدا لك يا سيد أحمد، أنا أقصد أن شهر رجب يقترب منَّا، وهو شهر مبارك، وفيه مناسبات سعيدة، ومن رأيي أن تكون مراسيم عقد القران مقارنة لواحدة منها.

قال صلاح ذلك، والتفتَ إلى أبيه، وكأنه يطلب رأيه.

لكن أم عادل بادرت بالتدخل، فقالت متحمسة:

ـ هذا يعني أن أمامنا متسعاً من الوقت للتحضير؛ فعدة أسابيع ما زالت تفصلنا عن شهر رجب.

فيما كانت الأم تعلن رضاها عما قاله صلاح؛ تنحنح أبو عادل بهدوء قائلاً:

ـ حسناً.. ليكن عقد القران إذن في الثالث عشر من شهر رجب؛ ليوافق ذكرى ولادة الامام علي.

أومأ صلاح بالموافقة على ما سمعه، قائلاً:

ـ لا بأس.. جيد.. كما ترى يا أبي..

رحب الجميع باقتراح الأب. وقالت شيماء وقد غمرها الفرح:

ـ ستكون تلك أحلى ساعة في حياتي..

وبينما كانوا يتداولون في موضوع عقد القران؛ إذا بهم يسمعون طرقاً على الباب.

سكت الجميع وسادت لحظات من الريبة، قطعها أبو عادل؛ إذ همس متمتماً:

ـ يا رب استر.. من ذا في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

هرول ياسر، ووراءه آمنة وعلي كما جرت العادة، ففتح الباب، وإذ بشخص لا يعرفه، بادر بالقول:

ـ السلام عليكم.. عفوا.. آسف على الإزعاج..هل الدكتور عادل موجود؟

أجابه ياسر بهدوء:

ـ نعم.. من حضرتك؟

ـ قل له: علاء.. لو سمحت.

عاد ياسر بعد لحظات؛ وقد أُخذ بذلك الشاب الواقف عند الباب.. بوجهه الأسمر الصارم القسمات، ولحيته الخفيفة التي غطت جزءاً من خديه، ولفته ذلك البريق اللامع في عينيه، وقامته الطويلة الممشوقة، وقد أحس بخشية حين سلَّم عليه بتلك الكف الضخمة التي أطبقت على كفه الصغيرة بلطف..

خاطب ياسر شقيقه عادل بالقول:

ـ في الباب شخص يطلبك. اسمه علاء.

وثبَ عادل من مقعده نحو الباب، وهو يردد:

ـ دكتورعلاء! في هذه الساعة!.. خير إن شاء الله!

انتحى عادل بضيفه علاء إلى زاوية قريبة من مدخل البيت، فجلسا متجاورين، بينما تابع الباقون التحادث بأصوات خافتة.

قال عادل، وقد لاحت على محياه بوادر القلق:

ـ أهلاً بك.. لكني أرى أنّ مجيئك ليس لمجرد الزيارة.

أخذَ الشاب نفساً عميقاً، وقال وهو يتناول كوب الشاي من يد ياسر:

ـ لا تقلق يا أخي. كل ما في الأمر أنّ اجتماعاً هاماً سيحصل للجنتنا مساء غد في بيتي، وسوف يحضر بعض الأخوة من بغداد والبصرة. وقد تُتَّخذ قرارات وإجراءات مهمة.

انتفض الدكتورعادل قائلا:

ـ العيون باتت مفتوحة علينا، والاعتقالات أصبحت عشوائية، وسأعدّ تقريرا أقدمه في حينه.. لدي مقترحات مهمة.

بعد حديث لم يطل؛ انصرف الدكتورعلاء..

وحين كانت نور تصب الشاي، وياسر يقدِّمه، وأم عادل منشغلة في الحديث عن زواج صلاح؛ انحنى عادل على أخيه أحمد، وهمس في مسمعه:

ـ غداً مساء اجتماع طارئ؛ لبحث الأوضاع. يبدو أن هناك تطورات أساسية في العمل..

كان أحمد يصغي باهتمام شديد؛ فاحتسى من كوب الشاي رشفة وقال:

ـ حاضر.. أنا رهن الإشارة..

شعر عادل بالاعتزاز بأخيه أحمد، فربت على كتفه، وهو يبتسم ابتسامة رضى.

بينما كان الأب يراقب الموقف بهدوء، وقد غرق في قلقه، كأنّ نفسه تحدِّثه بمستقبل صعب. فهو يلاحظ هذه الأيام تحولاً غير طبيعي في تحركات أولاده، وتحولاً ـ أيضاً ـ في إجراءات الحكومة، وعليه فهو لا يتردد، بين الحين والآخر، في إبداء النصيحة لفلذات كبده، بأن يكونوا أكثر حيطة وحذراً:

ـ إحذروا فعل النار في الهشيم.. الريح توشك أن تبلغ شديد عواصفها.

# يوم آخر

## ٢

في بيت الشيخ حسن؛ الدكتور علاء؛ الدكتور عادل وشقيقه أحمد، مع مجموعة من أعضاء التنظيم؛ مجتمعون لبحث تطورات الوضع الحساس الذي يمر به العراق على كل المستويات، والموقف المطلوب..

حضر الاجتماع ثلاثة من ضباط الجيش، وهم أعضاء في الخط العسكري للتنظيم، بينهم الرائد الطيار حكمت الرفاعي والرائد حميد عبد الجبار.

لقد حضر المجتمعون متسللين، فكان كل يدخل بمفرده؛ وبفاصلة عشر دقائق؛ ليتجنبوا عيون السلطة..

كان على رأس الاجتماع الشيخ حسن الجابري المسؤول التنظيمي، وهو أحد وكلاء المرجع الديني السيد محمد باقر الصدر في بغداد.

استهل الشيخ حسن حديثه بالقول:

ـ ما تشهده البلاد من تحولات سريعة وخطيرة يؤكد عزم

النظام على التصدي المباشر لثورة إيران، والحيلولة دون تردد أصدائها في داخل العراق. فالنظام يعيش حالة من الفزع جرّاء الزلزال، ولا يكف عن تدبير المؤامرات في المجالات المختلفة، ولا سيما في الإعلام، فضلاً عن التدخل المباشر. كما أصيب النظام بالهلع الشديد نتيجة المواقف الشجاعة للسيد الصدر، وفي مقدمها تأييده العلني للإمام الخميني. ومن غير المستبعد أن تقوم السلطات بأعمال استفزازية وانتقامية ضد السيد الصدر وأجنحته المجاهدة، ولاسيما حركتنا..

وعقَّب الدكتور عادل بالقول:

ـ ما تفضل به الشيخ حسن في مطالعته، تبدو مؤشراته واضحة في الواقع، فمن أجل حماية وجوده، نتوقع أن يعمد النظام إلى التخطيط لعملية شاملة تستهدف القضاء على الحركة الإسلامية وقاعدتها الجماهيرية. ومن هنا، فلا بد أن يكون موقف حركتنا منسجماً مع أهداف العملية وحجمهما.

ـ نعم، هذا صحيح تماماً، ومن خلال الخطوات التي اتخذها السيد الصدر، نفهم أنّ الحل الوحيد للتصدي لإجراءات النظام، هو الرد بالمثل؛ فلا بد ان نكون على أهبة الاستعداد..

قال ذلك الشيخ حسن. ثم استمر النقاش حتى ساعة متأخرة من الليل، خرج المجتمعون ـ بعدها ـ بجملة تصورات وبتقرير يرفعه الشيخ حسن إلى السيد محمد باقر الصدر للحصول على الموقف المطلوب.

ودّعَ الشيخ حسن الجميع، وصافحهم واحداً واحداً، وهو يقول:

ـ إلى اللقاء في ميدان العمل.

ثم راحوا يخرجون، كما كانوا دخلوا، متفرقين، بهدوء وحذر.

تسلَّل أحمد أولاً، فأدار محرك السيارة على مهل، وتبعه عادل، فتولَّى عنه القيادة:

في طريق العودة؛ حيث استقلا سيارة الدكتور عادل:

ـ ما رأيك في ما شهدته؟..

قالها عادل إلى أحمد الغارق في التفكير..

استيقظ أحمد من شروده، وهتف بانفعال:

ـ الشيخ حسن كان رائعاً.. والتوصيات أتت جريئة.. كم أتمنى اللقاء بالسيد الصدر. كانت آراؤك جيدة..

فقاطعه عادل بالقول، فيما كانت السيارة تتهادى بهما على طرقات مظلمة ومتعرجة:

ـ أمامنا الكثير.. المسؤولية كبيرة.. والمستقبل كبحر هائج مليئ بالمفاجئات.

خلال عودتهما صادفا العديد من الحواجز الأمنية، فكانَ أحمد يوقف السيارة، وينير المصابيح الداخلية، ويأتيهما الصوت:

ـ إنزلا.. افتح الغطاء الأمامي.. إفتح الصندوق.. هات أوراق السيارة وهاتا هويتيكما..

تعرضعت السيارة للتفتيش مراراً، كما تعرضا بدورهما للاستجواب والتفتيش..

ـ أين كنتما؟.. إلى أين تذهبان؟..

حيث كان عادل يتولى الإجابة:

ـ كنا عند أقرباء لنا في «حي الأمير».. حضرنا حفلة زفاف..

وكانت الوثائق تُحمل إلى الضابط المسؤول، حيث تغيب عدة دقائق.. وتعود بعد التدقيق فيها..

ومرات عديدة كاد أحمد يفقد السيطرة على أعصابه من هذه الدوامة اليومية المليئة بالاستفزازات والإذلال، لكن عادل كان يعاجله بتركيز نظره في وجهه، وتقطيب حاجبيه،

تجنباً للوقوع في مشكلة، في هذا الليل الطويل، لا أحد يعرف عواقبها.

أكثر من مرة قال له بعد أن كانت تسير بهما السيارة:

ـ كغيرنا يا أحمد.. كل الناس يتعرضون لما نتعرض له.. تمالك أعصابك يا أخي، تكاد تودي بنا إلى داهية..

وكانَ أحمد يداوم على الصمت، وهو يعض على شفتيه حنقاً.

كانَ الجميع بانتظارهما على أحر من الجمر، وقد فعل القلق فعله في نفوسهم. وما كادا يدخلان من باب الدار، حتى اندفع الكل نحوهما، وتحلقوا حولهما، حتى الأطفال كانوا لم يناموا بعد، وسارعوا إليهما.

وأخذت الأسئلة تنهال عليهما، مثلما تنزل طيور النورس متهالكة على الشطآن إثر رحلة طويلة شاقة.

قال علي:

ـ بابا أين كنت؟.. لم آكل.. ولم استطع النوم قبل أن أراك..

وقالَت أم عادل محتدّة:

ـ أليس لكم أهل؟.. أليس عندكم أولاد؟..

وهتف ياسر:

ـ والله لم أستطع الدرس..

وتمتمت شيماء:

ـ لقد بدأت دموعي تنهمر منذ عبرت الساعة منتصف الليل.. ألا تشفقان علينا؟..

وكانت صحون الأطعمة لم تزل على الطاولة، تنتظرهما أيضاً، فأوقف أبو عادل سيل الكلام والأسئلة بالقول:

ـ كفى.. هيا إلى العشاء الذي أوشك أن يكون فطور الصباح، فنتابع الحديث حول المائدة..

جلسوا إلى المائدة يتناولون الطعام البارد، والنعاس يغالب أجفانهم.

قال صلاح وهو يحاول اصطناع الحزم ويتطلع إلى شقيقيه بنظرات ماكرة:

ـ ليالي هذه الأيام شديدة الخطورة، فلا تفسدا عليّ فرحتي.. حفظكما الله..

ضحك الجميع، وقالت شيماء، وهي تمسح آثار الدموع عن عينيها اللتين امتزج فيهما الدمع بالبريق والقلق:

ـ لقد أوشك قلبي أن يتوقف.. الآن عادت إليه كامل طَرقاته.. لكنها طرقات سريعة.. مثل سيارة أبي علي..

وفيما ساد الضحك الجميع، قطعت أم عادل حبل المرح بقولها:

ـ لم لم تجتمعوا نهاراً رأفة بنا؟..

وكأنها قد أدركت بحدس قلبها أكثر مما لمسه أبو عادل بعقله إذ قال:

ـ ماذا دهاكما؟.. حفلة شاي؟.. عرس في مكان بعيد؟..

## ٣

الثالث عشر من رجب، يوم ربيعي مشرق.. طرقت أم عادل أبواب غرف البيت مبكرة، وهي تهتف عند كل باب:

ـ إنهضوا، لعلكم نسيتم أن اليوم هو عقد قران أخيكم!! هيّا قوموا..

نهض الجميع مستبشرين، ولكنهم متهالكون؛ لأن حديث الفرح لم يترك لهم ليلة أمس سوى سويعات للنوم.. لبسوا أفخر ثيابهم، وأكثر من لفت الأنظار، أبو عادل، وعصاه الخشبية الجديدة المرصعة بالفيروز، والتي اشتراها خصيصاً لهذه المناسبة.

قالت شيماء لصلاح؛ الذي تأخر في تجهيز نفسه:

ـ لا تتعجل إبق في البيت ونحن سنقوم بالواجب.

مكتوب عليك أن تمضي هذا النهار هنا، وأنت تضرب أثلاثاً بأرباع.. عفواً.. أخماساً بأسداس..

فضحك الجميع إلاَّ صلاحاً.. الذي ارتسمت على شفتيه الدقيقتين ابتسامة خجولة..

انضم إليهم بعض الأقارب، والأصدقاء والجيران، في مقدّمهم الشيخ حسن الجابري والسيد عبد الرحيم الموسوي، عميد أسرة الموسوي التي ينتمي إليها بيت أبو عادل.

بعدما ساروا حوالى ربع الساعة، لاحت مزارع الكوفة.. كسهل أخضر فسيح، وفي قلبها بيوت وادعة، أحدها بيت الحاج سعيد والد العروس.

كان أهل زهراء بالانتظار، ومعهم من سبق من الضيوف..

وبين الحين والآخر كانت تعلو زغاريد النساء وتوزع الحلوى، والفاكهة والعصير..

لمحت شيماء شقيقها صلاح يخرج باتجاه غرفة النساء؛ فبادرته مازحة:

ـ دقائق وتكون حبيبة القلب حلالاً عليك.. من مثلك ياعم؟

غمرت وجهه حمرة الفرح والشوق.

كانت أم عادل الأكثر جذلاً؛ إذ كانت تقطع الأحاديث بين الحين والآخر بالزغردة، وتنطلق الضحكات..

مراسيم عقد قران صلاح وبنت خالته زهراء؛ نموذج لعرس نجفي، جمع بين التراث الشعبي، والالتزام بالتقاليد الدينية.

حديقة البيت الواسعة خصصت للرجال..

وقد تم تنظيف أرضها من الأعشاب اليابسة، والزهور الذابلة، فزهت ببساطها الأخضر المطرز بالأزاهير التي تملأ الجو بعطرها الزكي..

كما أن أحواض الورد الجوري الأحمر، و«المحمدي» الفواحة قد زادت المكان سحراً وروعة..

لقد حضرت أم عادل قبل يوم إلى بيت أختها؛ لتساعد في الإعداد للمراسيم؛ فلم تترك بقعة في الحديقة إلاَّ وغسلتها بالماء، حتى شجرة التين النائية انتعشت من رشات الماء..

السيد عبد الرحيم، عميد الأسرة، بعمته السوداء المهيبة، وإلى جانبه أبو عادل ببدلته الإنجليزية وربطة العنق المقلمة الدقيقة؛ وكأنه قادم من عقد الخمسينات.. تقليد

وربما حنين، وأبو سعيد، والد العروس بملابسه الفخمة؛ يضع العقال والكوفية على رأسه، ويرتدي «الدشداشة» وفوقها «الزبون» والعباءة البنية النجفية التي ترتخي على كتفيه، والى يمينه الدكتورعادل، وبعض المقربين، وقفوا عند الباب الرئيس لاستقبال الضيوف بابتسمات عريضة:

ـ أهلاً وسهلاً.. تفضلو.. نفرح بأولادكم إن شاء الله.. نورتم..

جلس صلاح بين المدعوين، متأنقاً، يشع جمالاً، وقد تحلق حوله أصدقاؤه وهم يمازحونه. أحدهم بادره بالقول:

ـ يا فرحة قلبي.. أخيراً علقت في الفخ.. دعني أدعس على قدمك فلعل دوري يحين بسرعة..

وقال آخر:

ـ يا مسكين.. ماذا أصابك تورط نفسك؟.. عليك العوض..

فكان يجيب على المزاح بجدية لطيفة بالقول:

ـ نفرح بالجميع إن شاء الله.

وكثيراً ما أطلق بعضهم ضحكات عالية، وهم يثقلون عل صلاح بمزحاتهم.

بإشارة من أحمد، أخذ صلاح بالتنقل بين المدعوين

لالتقاط الصور التذكارية، فكانَ واحد يصافحه، وآخر يضع ساعده على كتفه، وآخر يلف ذراعه حول خصره..

أما أحمد، فكان يبدو وكأنه كل شيء في المراسيم، فهو كان يرحب بالضيوف بعد جلوسهم، ويراقب توزيع الحلوى والفاكهة والعصير، ويتصل بالنساء عند الحاجة، وينسق حركة المصور، ويعطي توجيهات إلى العريس، إذا لزم الأمر.

بين الحين والآخر، كان إثنان من المنشدين يتناوبان على قراءة التواشيح والمدائح النبوية والتي يعقبها الحاضرون بالصلاة على رسول الله وآل بيته.

في الجناح الداخلي للبيت، كانت النساء، ومعهن العروس، وهي في أحلى زينتها.. فستان أبيض فضفاض، وتاج صغير من الذهب، وطرحة رقيقة. كان وجهها يشع جمالاً، ويزيده تألقا شعرها الكستنائي بتسريحته الساحرة، وعيناها السوداوان الكحيلتان ترسلان بريقاً ممزوجاً باللهفة للقاء الحبيب.

كانت خواتم القران والعقد النفيس والأقراط والأساور الذهب لاتزال مكنوزة في علبتها البهية المركونة على الطاولة؛ بانتظار صلاح أن يزين بها عروسه.

النسوة يعبرن عن غبطتهن بالزغاريد التي تطرق الآذان

بحدة، ويرددن أحياناً مع المنشدة (الملاية) التي تصور العروس قمراً منيراً ووردة جورية حمراء، وفراشة ربيع. ثم لاتنسى العريس في ما يخطر لها من أوصاف الرجولة، والجمال والقوة، فهو الأسد الشجاع، والعاشق الولهان، وبدر الدجى.. وتتخلل الزغاريد الصلاة على النبي وآله..

كن يتمايلن بفساتينهن الفضفاضة الملونة، كالفراشات الهائمة، يدرن حول العروس المتألقة بأنوار السحر..

أكثرهن حماساً، كانت شيماء، التي راحت تداعب العروس على نقرات الدف، وهي تغني لها بصوت عذب:

ـ طلع الفجر علينا..

وكانت العروس تخطو بخجل يتلهب حمرة في وجهها، وخديها، فيزيدها فتنة على فتنة.

الباب الداخلي كان مغلقاً، وكلّما كانت تدعو الحاجة، كان أحمد يطرقه، فتطل أُمه، أو شقيقته شيماء، فيحدثها بما لديه..

أما توزيع الحلوى، وجلب أباريق الماء، أو الحاجة إلى كراسٍ، فكان ياسر ينجزها لوحده..

تلك المرة، طرق أحمد الباب على النساء، فأطلَّت أُمه، وأخبرها أن الشيخ حسن قد حضر منذ بعض الوقت ويريد

أن يأخذ توكيل التزويج من العروس. جلس الشيخ حسن خلف الباب المنشق قليلاً، على كرسي من الخيزران الأصفر أحضرت له، وكان كهلاً وقوراً، في أربعينيات عمره. لطيفاً؛ حيث بادر أبا عادل، والبسمة مشرقة بالفرح الذي يشع على تجاعيد وجهه:

ـ أأنت العريس؟..

فتضاحك السامعون، وعبق وجه أبي عادل بحمرة الخفر، وقالَ:

ـ يا حسرة علي.. وعليك يا مولانا.. قد أكل الدهر علينا، وشرب..

طلب الشيخ من النساء أن يصمتن، ليتسنَّى للعروس أن تسمع صوته، وليتمكن هو من سماع صوتها، وبعدما أطلق عدة نداءات، ذهبت أدراج الرياح، تأفف مبتسماً، وقالَ:

ـ ستذهب محاولاتي عبثاً.. لا أحد يقدر على إسكات النساء..لا في الأفراح.. ولا في الأحزان..

وراح يتحدث وقد رفع صوته ما استطاع، فتناول سنة الزواج، وقيمتها في الحياة، وأهميتها في هذا الوجود، وقد استشهد بآيات من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث الشريفة..

قال مخاطباً العروس:

ـ أيتها الآنسة النبيلة زهراء عامر.. إذا رضيت بالزواج من الشاب الوجيه السيد صلاح عبد الرزاق حسين الموسوي على المهر المعلوم... فقولي: نعم، أنت وكيلي.

وبعد أن أعاد الخطاب مرارا، كما جرت العادة، قالَت العروس أخيراً بحياء بالغ:

ـ نعم..أنت وكيلي.

أطلقت النساء الزغاريد، والدعوات بالهناء، ورفعن وتيرة الإنشاد، والصلوات على الرسول وآله.

بعد ذلك توجهَ الشيخ حسن إلى العريس، فألقى عليه صيغة العقد الذي أخذه من موكلته، وكان صلاح يقول على استحياء:

ـ قبلت التزويج.

ولما أتم المراسيم قبل صلاح يد الشيخ حسن وعانقه، وتوجه نحو أبيه وعمه أبي سعيد والسيد عبد الرحيم، فقبل أيديهم ووجوهم، وعانق أشقاءه بحرارة، وكأنه لايريد لروحه وجسده أن يفارقهم. وتبادل القبلات والمصافحات مع جميع المدعوين، وتقبل منهم التهاني، وهم يرددون:

ـ مبروك.. مبروك.. بالرفاء.. والبنين.. «ألف الصلاة والسلام عليك يارسول الله محمد.. صلوات».

وتدفقت الحلوى والعصير على الحاضرين ألواناً وأشكالاً.. وعلت أصوات المنشدين..

دخل صلاح إلى غرفة النساء للقاء حبيبته وحليلته زهراء.. فكانت جولته متعبة..

ـ ألبس العروس محبسها.. وعقدها.. وسوارها.. وأقراطها.

قالت شيماء:

ـ قبلها..

قالت أم عادل:

ـ إرفع البرقع.

هتفت أكثر من واحدة:

ـ قبلها.. قبلها ولاتخف من أمها..

فعل صلاح، بخفر شديد.. وشوق أشد. وكانت العروس أكثر منه حياء، وكانت دموع الفرح والشوق والرهبة جارية على خديها.. فقد تحقق حلمهما أخيراً والتقيا زوجين.. بعد أن انتظرا ذلك حبيبين..

## ٤

كان الجميع يغطون في نوم عميق، حين رن جرس الهاتف في بيت عبد الرزاق، فأيقظ رنينه أم عادل، فنهضت متجهة نحو الصالة، ورفعت سماعة الهاتف:

ـ نعم تفضلوا.. من المتكلم؟

ـ السلام عليكم.. رجاء.. هل هنا بيت السيد أبي عادل؟

ـ وعليكم السلام.. نعم هو.. تفضل.

ـ أرجو أن لا أكون قد أزعجتكم في مثل هذا الوقت.

ـ لا.. أبداً، من تكون حضرتك؟!

ـ أنا صديق الدكتور عادل، أردت التحدث إليه في أمر مهم.

ـ طيب.. إنه نائم.. سأوقظه حالاً..

وقبل أن تضع السماعة عاودت الحديث مع الشخص المتكلم، وكأنها تذكرت شيئاً:

ـ عذراً، يا ولدي، هل حدث شي، لا سمح الله؟!

ـ خير إن شاء الله.. إنه مجرد أمر بسيط، فأنا على وشك السفر، وأردت أن أسلم على الدكتور وأودعه.

ـ طيب.. طيب..

وهنا خرج أحمد من غرفته، والنوم لا يزال في عينيه، ليستفهم من والدته عن الموضوع، فأوضحت له ما دار بينها وبين المتكلم، فشك أحمد في الأمر، ورفع السماعة، فدار حوار قصير بين الاثنين، حيث هتف أحمد:

ـ مرحباً.. أنا أحمد شقيق الدكتور عادل..

ـ أهلاً.. أنا علاء..

ـ أهلاً دكتور علاء.. سأوقظه حالاً..

طلب أحمد من والدته إيقاظ الجميع للصلاة، إذ طلع الصباح، بينما ذهب هو لإخبار أبي هشام..

لكن الأُم بقيت قلقة رغم تطمينات أحمد، فمضت تقول مخاطبة نفسها بصوت مسموع:

ـ ترى.. ما الأمر؟.. استر يا الله..

ذهب أحمد إلى غرفة أخيه، وبعد أن طرق الباب بهدوء، خرج عادل مستفهماً عن الأمر، فأجابه أحمد بأن المتكلم علاء، ويبدو أن شيئاً ما قد حدث.

أسرع عادل للتحدث مع صديقه:

ـ السلام عليكم دكتور علاء.. ما الأمر..

فقال الصوت مجيباً بعد التحية:

ـ السلام عليكم دكتور عادل، نحن بانتظارك الآن.. أخذوا أبي جعفر إلى المستشفى..

ـ السيد؟! يا إلهي! متى؟!

ـ قبل نصف ساعة.

ـ طيب طيب، سأتحرك الآن.

وتوادعا على أمل اللقاء.

وبلهفة، سأله أحمد عن الموضوع:

ـ ماذا هناك؟.. هل استجد أمر ما؟ أنا جاهز..

فلم يرد عليه عادل بشيء واضح، وكل ما قاله:

ـ اعتقلوا السيد محمد باقر الصدر، سأتصل بك، وإذا حصل أي تطور أو تأخير.. إحصل لي على إجازة مدة يومين من المستشفى.

هنا عادت الأُم تتساءل، وقد علت وجهها علامات القلق:

ـ ولدي.. حبيبي.. ما الأمر؟..

حاول عادل طمأنتها، فنظر في وجهها الحائر وقال:

ـ أحد الأصدقاء سيسافر، وأود توديعه.

لم يهدأ قلب الأُم عن القلق، فبقي سريع الخفقات، وبقيت تطلق من توصياتها الكثيرة لولدها رغم تطميناته لها فقالت:

ـ أبا هشام.. إحذر.. إنتبه حبيبي.. وفقك الله..

ذلك أن قلبها كان يحدثها بشيء آخر، فرجعت غير مرتاحة البال لتوقظ النائمين للصلاة، فيما تهمس في خاطرها:

ـ أرجو أن لا يصدق قلبي الحدس الذي يخالجه..

## ٥

في شوارع النجف الأشرف القديمة.. المدينة الدينية العريقة، الملتصقة بطابعها التراثي.. كان الجو ملتهباً ومسلحو السلطة منتشرون في كل مكان.

مرت السيارة بالدكتور عادل ومرافقه الدكتور علاء بأزقة ملتوية حتى وصلا بيتاً قديماً في محلة «البراق».

لقد وقع المحذور، فحين كان الصمت الكامل يخيم على النجف؛ كان لزوار الفجر مهمة أُخرى..

لقد اعتقلوا السيد محمد باقر الصدر بأمر من صدام حسين نائب الرئيس..

بعد سويعات خرجت تظاهرة صاخبة في النجف، تطالب بإطلاق سراحه، وتهتف بحياة الصدر. اشترك فيها الدكتور عادل بحماس، حيث التحق بالتظاهرة بعيد انتهاء المتجمهرين من قراءة دعاء الفرج في مرقد الإمام علي.

لم تكن الجموع قد ابتعدت عن المرقد؛ فعاودت الاحتشاد سريعاً، وانطلقت باتجاه شارع الصادق..

وتدفقت كالسيل، وهي تهتف:

ـ عاش عاش.. عاش الصدر.. والدين دوما منتصر

فيما طوقت القوى الأمنية المكان، وبدأت بالاشتباك مع المتظاهرين العزل واعتقالهم.

افترق عادل وعلاء وزميل لهما، واتفقوا على اللقاء في «السوق الكبير» حيث كان أوقف سيارته..

تمكن عادل من النفاذ من الطوق الأمني عبر طرقات فرعية، بعد أن اشتبك في «السوق الكبير» مع بعض رجال الأمن والمخابرات الذين حاولوا اعتقاله، حيث اعترضه أحدهم؛ فدفعه عادل بقوة، ومن تقدموا لإمساكه، واستطاع الإفلات من بين أيديهم، متخذاً طريقه في شارع زين العابدين، حيث وجد الدكتور علاء بانتظاره في سيارة صغيرة بيضاء، وقد ترك بابيها الخلفيين مفتوحين..

هتف عادل وهو يلهث جهداً:

ـ لقد أفلتت من أيديهم بمعجزة!

فعقب علاء وهو يدير محرك السيارة وينظر في المرآة بعينين قلقتين:

ـ نأمل أن لا يكونوا احتفظوا لك بصورة في أذهانهم..

ـ على الأرجح أنهم حفظوا وجهي..

فعاد علاء إلى القول، وهو يطلق لسيارته العنان:

ـ لا يمكننا انتظار أحد في هذه الحالة.. إنهم لا شك يجدون في البحث عنك.

من هناك انتقل عادل إلى بغداد مباشرة..

## ٦

بعد يومين من الغياب في بغداد؛ عاد عادل إلى بيته في النجف؛ وإذ يباغت بباب البيت المشرع، وبأُمه المولولة الحائرة، وهي في حالة يرثى لها، ومعها الأطفال وأم هشام؛ فطالعته بوجهها الشاحب، وانفجرت بالبكاء نادبة متفجعة:

ـ أحمد وصلاح.. خرجا ولم يعودا.. منذ أول أمس.. يا ويلي..

فقاطعها عادل:

ـ وأين الباقون؟..

فتابعت معولة:

ـ تفرقوا كلاً باتجاه.. ذهبوا يبحثون عنهما، علّهم يعودون عنهما بخبر.. ماذا سنفعل؟..أية مصيبة هذه؟!

حاول عادل طمأنتها وهو يقبل يديها، ويمسح دموعها:

ـ سوف أجد في البحث عنها.. لا تخافي.. إبقي أنت مع الأطفال.

والحقيقة أنه ـ هو الآخر ـ كان قلقاً على مصيرهما، فردد، وهو في ارتباك شديد متمتماً يحادث نفسه:

ـ لا بد أن يكون صلاح وأحمد قد اشتركا في التظاهرة.. لا بد أنهما مصابان.. أو معتقلان.. ماذا بإمكاني أن أفعل لهما؟.. هل بدأ الإعصار يضربنا يا ترى؟..

ما هي إلاَّ دقائق حتى طرق الباب طرقات متوالية عاجلة، فأسرعت أم عادل تمنع ولدها من التوجه لفتح الباب، وذهبت هي لتنظر من الطارق.

فوجئت بشخص يقود دراجة بخارية! شاب نحيل، لفحت الشمس وجهه، فبدا كأنه تمثال من البرونز..

فلما رآها، أعطاها ورقة صغيرة مغلقة، دون أن ينبس ببنت شفة، وأطلق دراجته للريح، حتى توارى عن عينيها، وهي تنظر إليه بحيرة وتمعن، بعد أن فشلت في التحدّث إليه!

عادت الأُم مسرعة، والقلق يكاد يصرعها، وهي تقرأ:

ـ إلى الدكتور أبي هشام.. ماذا يريدون؟

سلمت الورقة المطوية لولدها، فأسرعَ إلى فتحها ليقرأ فيها:

«الأخ أبو هشام، السلام عليكم، صلاح اعتقل، وأحمد

بأمان، سيعود إلى البيت في وقت قريب. أما أنت، فلا تتأخر في ترك البيت. السلطات تلاحقك. المخلص أبو ياسر».

فتمتم:

ـ تاريخ اليوم.. المسألة أخطر مما كنت أتصور..

وقبل أن يبدي أي رد فعل، مزق الرسالة، في حين كانت أمه وزوجته تبحثان عمن ينقذهما من حيرتهما..

طمأنها عادل بأن أحمد سيعود إلى البيت خلال أيام، أما صلاح، فسيتأخر قليلاً، أما هو فإنه مضطر للسفر فوراً بصحبة عائلته، وأكد لها بأنهم سيعودون بعد شهر، أو يسافرون إلى الخارج.

فلطمت وجهها بكلتا يديها، وصرخت، وقد فقدت صوابها:

ـ يا ويلي.. ماذا تقول؟ يا أولادي.. ما الذي يجري؟..

دقائق أُخرى وانتهى كل شيء.. عادل يحمل طفله هشام، وبيده حقيبة السفر، ونور تقود ابنتها آمنة، وهم على وشك الخروج من البيت، وسط ذهول الأم وهلعها..

في تلك الأثناء حضر أبو عادل، ومعه ياسمين وزهراء..

كانوا في إعياء شديد، والدموع تلمع في عيونهم، والخيبة قد فعلت فعلها على ملامح وجوههم.

بادر أبو عادل بالقول:

ـ لم نجد لهما أثراً.. لا في المستشفيات.. ولا في مراكز الشرطة.. لعلهما خارج النجف، وفوق ذلك أضعنا ياسر وشيماء.. مازالا يبحثان.. لكنه لما رأى عادل مهماً بالخروج، وأم عادل مذهولة باكية، استدرك، وقطع حديثه بالقول:

ـ ما الأمر؟.. إلى أين يا ولدي؟.. أترحل مع عائلتك؟.. ما الذي يجري؟.. الوضع ملتهب.. وإطلاق نار.. وحواجز الأمن تنتشر في كل مكان.. لا يمكنك التحرك بسهولة.

وقالت ياسمين والدموع في عينيها:

ـ أتتركنا هكذا وحيدين في هذا الظرف الصعب؟.. من لنا معين سواك؟.. من سيبحث عن أحمد وصلاح؟..

ـ أنا مضطر للرحيل.. إن في بقائي هنا خطر علي وعليكم جميعاً.. السلطة لن تستثني أحداً منكم إن بقيت بينكم وأنا مطلوب.. وعمليات البحث جارية عني.. إن رحيلي عنكم يجنبكم الخطر.. والأذى.. أحاول أن أجنبكم المتاعب.. إفهموني جميعاً أرجوكم..

لم يكن أحد يصدق ما كان يحصل، لقد اعترى الذهول الجميع..

وأخذ عادل وزوجته نور يودعان الكل واحداً واحداً بالعناق والقبلات والدعوات، فيما كانت الدموع هي التي تتكلم فقط..

وحاول عادل خنق دموعه اللاهبة في عينيه، ومنعها من أن

تسيل على خديه، لكن دون جدوى، إذ إنه ما كاد ينظر إلى وجه أمه، حتى انفجر بالبكاء كالأطفال، فضمته معانقة، وهي تشهق شهقاً بالعويل المر..

وقالت، وقد أعيت الغصة كلماتها:

ـ وداعاً يا نور عيني.. حماك الله.. سأفتقدكم جميعاً.. واحداً واحداً.. سأموت من بعدكم.. أرجو أن يكون قلبي مخطئاً في حدسه.. نجاك الله أنت وأهل بيتك.. وتعودون إلينا بخير.. إنتبه إلى سلامتك.. وسلامة عائلتك..

وظلت آمنة متشبثة بملابس جدتها، وهي تصرخ:

ـ لا.. لا أريد الذهاب.. إتركوني عند جدتي.. وأنام في حضنها.. وألعب مع جدي.. إتركوني هنا..

رغم أن أباها وأمها كانا يقولان لها إنها ستعود سريعاً..

لقد سادهم شعور غامض، أنهم يودعون بعضهم بعضاً لآخر مرة.. وداعاً لا لقاء بعده..

وتقدم علي من آمنة، فقبلها، وأعطاها كرته الحمراء وقال وهو يشهق بالبكاء:

ـ خذي الكرة.. تسلّي بها.. وتذكريني.. إذا لم تعودي.. سأتذكرك.. أنت والكرة..

وتمتم أبو عادل يهذي، وهو عاجز عن حبس دموعه:

ـ من يدري؟.. لعله الوداع الأخير.. من يدري؟.. هل بدأ

الزلزال؟.. وتسمر عادل مكانه للحظات، وهتف بحزن لا حدود له:

ـ بلغوا سلامي إلى حبيبتي شيماء.. وحبيبي ياسر.. والغالي صلاح.. وعزيزي أحمد.. أعادهما الله بأسرع وقت.

مشى عادل وزوجته نور وولداه هشام وآمنة، مروا وسط الدموع الجارية، وتحت الأكف الضارعة إلى الله وهي تمتد فوق رؤوسهم، وتلامس شعورهم ووجوههم.. مروا يحملون مرارة صدورهم..حتى خرجوا من الباب.. وتواروا عن الأنظار.. تاركين دموعاً لاهبة، وخواطر سوداء غامضة كأنها غربان ترف ناعقة.. لن يعود أحد.. بعد أن مروا تحت المصحف الشريف الذي كانت تحمله أم عادل..

ترك عادل رسالة إلى أحمد، سلمها لأبيه قائلاً:

ـ هذه الرسالة خاصة جدا.. قل له أن يمزقها فور قراءتها..

ذهب عادل مع عائلته إلى المجهول، تلاحقهم عيون الأم المفجوعة، والأب المسكين، إضافة إلى عيني علي البريئتين، وهما تلاحقان بنظراتهما الحائرة هشام وآمنة مودعتين..

ركعت أم عادل على ركبتيها أرضاً، ورفعت يديها نحو السماء خاشعة باكية، وهتفت متمتمة:

ـ يا إلهي.. ما لوهج الفرح انطفأ في أرجاء البيت فجأة؟.. عادل وعائلته ذهبوا إلى حيث لا أحد يدري.. وربما لن يعودوا

أبداً.. وأحمد مفقود.. وأيضاً صلاح الذي عقد قرانه لم تزل فرحتي به غير مكتملة.. وفرحته في أوائلها.. وفرحة عروسه..

يا إلهي.. أفي كابوس أنا؟.. أم في حقيقة مُرة؟..

## ٧

بعد أيام معدودات، عاد أحمد إلى البيت، فاستقبله الجميع بالسلامات والقبلات، وهتفت أم عادل به باكية:

ـ عادت إلي بك نفحة من روحي الشقية.. لكنني خائفة على عادل وصلاح.. قلبي يرتعد.. لا تتركنا بعد الآن يا ولدي..أرجوك..

وسلمه أبو عادل الرسالة التي تركها له عادل، ففتحها على الفور، وقرأ فيها:

«عزيزي أحمد.. انكشف أمري، يبدو أنه اعتراف.. لقد طلب الأخوة مني الاختفاء مع عائلتي..انتبه إلى نفسك جيداً..الشيخ حسن والدكتور علاء اعتقلا.. اللجنة والخطوط المرتبطة بها بعهدتك منذ الآن. وعينك إبقها على العائلة.. وداعا أخي الحبيب..»

قرأ أحمد الرسالة، ثم مزقها، ولم يخبر أحداً بفحواها. برغم أن العيون كانت تنظر إليه بقلق بالغ..

وبدأت الروح تعود إلى البيت بعودة أحمد، رويداً

رويداً، فعاد ينبض بالحياة، إلا أنَها حياة مفعمة بالألم، والحزن. أما البسمة فقد سرقت من على الشفاه، إلى الأبد، إذ يكفي لعين أن تدمع، بمجرد النظر في عيني العروس زهراء الحزينتين المغرورقتين أبداً بدموع الفراق..

استأنف أحمد عمله الوظيفي كإداري في مديرية الشرطة بشكل طبيعي، وكأن شيئا لم يكن؛ فكان يزاول العمل بانضباط، وحيوية، ذلك منعاً لإثارة الشكوك حوله، كما بقي حذراً خلال تحركاته، وكلامه، وكان يقول دائماً في سريرته:

ـ بعد انكشاف عادل، واعتقال صلاح.. لا شك أن الكثير من العيون، المتربصة بي.. تتابعني.. وتسعى للإمساك بي..

ومن خلال الرسالة التي تركها عادل، فهم أحمد بأن أخاه سيترك العراق، حتى يأذن الله..

لكن الذي حدث، لم يكن في الحسبان! فبعد شهرين تقريباً من التخفي، حاول عادل السفر بجواز سفر مزور، إلاَّ أنه قبل أن يبارح الوطن، تم إلقاء القبض عليه مع العائلة في المطار، وأودع في معتقلات مديرية الأمن العام.

عرف أحمد كل ذلك من بعض المتعاونين مع خطه التنظيمي في جهاز الأمن، لكنه لم يجرؤ على إخبار العائلة بهذه المأساة، فأودعها في قلبه، وأضاع المفتاح، في حين أنه كان يفتعل الأخبار لوالديه عن عادل لكي يطمئنهم.

ومن حسن حظ أحمد، أن السلطات لم تطلع العائلة على أي خبر حول عادل وعائلته، فضاعت أخباره عن أهله طوال الفترة اللاحقة.

لذلك كانت أم عادل تقول دائماً وهي تمسح دموعها بيديها:

ـ كبر هشام.. كبرت آمنة.. ترى متى ستعود يا عادل؟..

أما صلاح، فلم يكن الوضع معه مختلفا، ولكن..

في أحد أيام آب اللاهبة..

رجلا أمن دخلا الغرفة التي يعمل فيها أحمد، وبلا مقدمات، طلبا منه أن يصحبهما بضع ثوان، وسط علامات الاستفهام التي ارتسمت على وجوه زملائه الموظفين في الغرفة نفسها!

قال أحدهما بنبرة آمرة:

ـ أنت أحمد عبد الرزاق؟..

ولم يترك له لحظة للإجابة، بل تابع القول:

ـ إذهب أنت وأبوك.. لتتسلما جثة الخائن صلاح.. أُعدم بعد المحاكمة والإدانة.. ولاتنسى إحضار ثمن الرصاصات التي أطلقت عليه خلال عملية الإعدام.

ثم انصرفا، كما دخلا.

ما هي إلا دقائق حتى عاد أحمد مضطرباً، جلس على منضدته منهاراً، وأطرق برأسه، ووضع يديه على وجهه..

عندها التف حوله بعض أصدقائه الموظفين، وسألوه عما جرى، إلا أنه لم يتكلم بكلمة، بل أخذ يشد وجهه بيديه، ثم نهض واقفاً، ورفع يديه وطرفه إلى السماء، وبعد أن تمالك نفسه قال:

ـ «اللهم تقبل منا هذا القربان»..

وهم بالخروج، إلا أن أحدهم أمسك به من ذراعه مستفهماً:

ـ ماذا تقصد؟!.. ما الخبر؟!..

ـ سأذهب لأتسلم جثمان أخي صلاح!..

قالها أحمد بكل رباطة جأش، وخرج، في حين تسمر زميله في مكانه، ودهش بشدة، وكذا الحال مع بقية الموظفين.

وتمتم أحدهم:

ـ الله يعينه، ويعين عائلته.. لقد بدأ الإعصار يضرب في بيتهم.

في الطريق إلى البيت سرح أحمد بخياله ودموعه تنهمر ويقضم شفتيه وبالكاد يكظم ثورته:

ـ صلاح.. الذي داعبته صغيراً.. ورافقته كبيراً.. ورقصت في فرحه بالأمس.. أي صدمة هذه؟!.. ماذا أقول لأمي وأبي؟.. لشيماء؟.. لياسر؟.. ماذا أقول لزهراء؟.. البائسة..

كان يفكر في الطريقة التي يخبر بها الأهل باستشهاد صلاح، خاصة أمه، وزهراء؛ العروس المفجوعة..

وبقي لحظة عند الباب في حالة تردد وارتباك وهتف في سره:

ـ لا.. سأبقى صامتاً.. لا أقوى على الإفصاح عن الكارثة..

إلاَّ أنه أحس بأجواء غير طبيعية داخل البيت! وفور دخوله، تجلت المأساة أمامه.

لقد علم الأهل بالخبر أيضاً..

أم عادل مغشي عليها، وقد وضع أبو عادل رأسها في حجره، وهو يذرف الدموع، ويندب حظه، وحظ هذه الأم المسكينة، ويدندن باكياً:

ـ ليتك مت قبل هذه المصيبة.. وليتني مت أيضاً يا بائسة.. وأنا بائس، صلاح يا حبيبي.. قتلوك..

بينما ضجت شيماء وياسمين بالبكاء، وهما تندبان صلاحاً، وترثيانه بتفجع..

كانت شيماء تولول، وقد اختنق صوتها، وبحت نبراته الحزينة، وقد مزقت ثيابها، وشعثت شعرها، وازرق خداها من شدة اللطم، فاختلطت دموعها بحمرة الدماء التي كانت تسيل على محياها، وقد ضمت صورة صلاح مع عروسه، تقبلها:

ـ يا أخي.. يا فلذة من روحي.. يا نور عيني.. يا أغلى من حياتي.. يا عريس.. إضحك لزهراء يا حبيبي.

وتنادي بأعلى ما امتلكت من شدة الصوت:

ـ صلاح.. حبيبي..

ولا تستكين..

ياسر أجلس ابن أخيه الباكي علي في حجره، وهو يعض على شفتيه بقوة، وقد خنقته العبرة، ودموعه تنهمر على خديه، وتمنى لو يحطم الحائط برأسه.

التقت عينا أحمد المحمرتان اللتان كانتا تنطقان بالغضب، والثأر؛ بعيني أبيه الدامعتين، فقرأ فيهما توسلاته المرة، وكأنهما كانتا ترجوانه أن يرحم هذه المرأة المسجاة، ولا يفجعهما به هو الآخر.

بين فترة وأُخرى، تعود أم عادل إلى رشدها، فتنتحب، وتولول، وتتفوه بكلمات مبهمة لا يفهم منها سوى.. حبيبي صلاح.. عرسك يا ولدي.. قتلوك قبل زفافك.

## ٨

كانت تمر الأيام بطيئة متثاقلة، صبغتها مرارة الدماء وحزن الليالي.

كانت تمر الأيام، وأحمد يعمل ليل نهار من أجل القضية.

لم يمنعه كل هذا التحرك من الاستمرار في عمله الوظيفي؛ لأنه لم يكن يرغب بفقدان موقعه، ولا بتوجيه الأنظار إليه، فكان يخرج عند الفجر، ولا يعود إلاَّ بعد منتصف اللَّيل.

ولكن..

في أحد الأيام، وبينما كان في دائرة عمله، سابحاً في بحر أفكاره ومخططاته يقول في خاطره:

ـ الأيام بيننا.. دم صلاح.. دماء الكثيرين.... لن تذهب هدراً..

أرسل المدير العام يطلبه لأمر مهم.

وكأن السكرتير كان يدرك ما الأمر، فقد قال وهو يزم شفتيه، وهو عابس على غير عادة:

ـ أستاذ.. المدير يطلبك.

وفي غرفة المدير، أخبره المسؤول الحزبي في الدائرة بقرار حرمانه من العمل، وفصله من الوظيفة، بسبب إعدام شقيقه صلاح..

وبابتسامة صفراء غامضة واجه أحمد المسؤول الحزبي والمدير العام، واستقبل قرار فصله بالقول:

ـ شكراً.. كنت أنتظر ذلك.

خرج أحمد من غرفة المدير، ليودع زملاءه، ويلقي النظرة

الأخيرة على دائرة عمله، التي عمل فيها أكثر من سبع سنوات متوالية.

كانت ردود فعل الزملاء متفاوتة، فبعضهم أبرز تأثره، وبعضهم خاف على عمله ونفسه، فغيب رأسه كي لا يحرج مع زميله، والآخرون من عناصر السلطة، سرهم الحدث؛ لأن أحمد لم يكن يوالي النظام.

خوفها على مستقبل أحمد وحياته؛ أدخل العائلة في دوامة جديدة؛ إذ سيبقى محط أنظار عناصر السلطة، ومراقباً منها على الدوام، إضافة إلى فقدها لأهم مورد لمعيشتها؛ فلم يبق سوى الراتب التقاعدي لأبي عادل.

قال أبو عادل:

ـ لا تحزن يا ولدي.. تُفرج..

ولم تعد أم عادل تتحمل هذه المجموعة المتراكمة من الصدمات، فحاولت أن لا تعير أهمية للموضوع، فقالت:

ـ لم يعد يهمني غير سلامتكم.. خاصة أنت.. قلبي يخفق بعنف كلما خرجت من البيت.

قرر أحمد على الفور العمل في أي مجال حر، لكي يستمر على نشاطه المعارض للنظام، ويطرد الشكوك وعلامات الاستفهام من حوله، إضافة إلى تأمين جانب من المصاريف الكبيرة للعائلة.

وتنطق المشيئة بأن يكون أحد أقرباء زوجته بحاجة إلى محاسب كفؤ وموثوق به؛ لاستلام حسابات شركته التجارية الخاصة. هتفت به ياسمين مشجعة، بينما كان يشرب شاي الصباح، والغم باد على وجهه:

ـ لماذا لا تقصد ابن خالتي عبد الكريم.. صاحب الشركة التجارية للأغذية.. هي قريبة من هنا.. إنك تعرفه جيداً.

فأجابها أحمد بعد رشفة من الشاي:

ـ من أجل عينيك الذابلتين.. سأذهب..

حصل أحمد على العمل بسهولة، نتيجة خبرته الطويلة في هذا المجال، وأمانته، وعلاقته العائلية مع صاحب الشركة، الذي لم يكن يعلم بتفاصيل وضعه الأمني..

وقد فوجىء بحرارة استقباله له:

ـ أستاذ أحمد!.. أهلا بك في شركتك.. رغم أنك قد تغلبني في كرة المنضدة دائماً.. ألا تذكر؟.. تفضل منذ الآن.. هذه غرفة المحاسبة.. لديك ثلاثة معاونين.. رهن إشارتك..

# الجريمة

## ٩

ذات يوم دلف أحمد إلى البيت قبيل الظهر على غير عادته، وكان في حالة سيئة جداً؛ شاحب الوجه، دامع العينين، وجسده يرتعد ارتعاد المقرور بدوار الحمى الشديدة، إذ راح يجر قدميه جرا بصعوبة، وقد بدا على ملامح وجهه الحزن الشديد، فخطا، وارتمى إلى أقرب مقعد صادفه عند المدخل.

لمحه أبوه الذي كان يقرأ في صالة الاستقبال كتاباً عن الحضارات القديمة، وقد وضع نظارته الطبية الجديدة، حيث بدا كأنه تقدم في السن عشر سنوات خلال السنة الفائتة التي كانت مثقلة بالأحداث والنكبات. ويكفي إعدام صلاح ورحيل عادل سببين لقصم ظهره..

نظر إلى أحمد نظرة عطف وريبة، وقال منادياً إياه:

ـ أحمد.. تعال إلى هنا يا بني.. لماذا عدت باكراً؟.. لقد بغتنا بحضورك المفاجيء.. ماذا حصل لك؟..

لكن أحمد بقي متسمراً مكانه، لم ينطق بحرف واحد بل ظلّ مطرقاً برأسه كأنه صنم من حجر أصم.

فعاوده بالسؤال:

ـ ماذا ألم بك يا ولدي؟.. تكلم.. هل أصابك سوء لا سمح الله؟..

واتجه نحوه، وهو يكرر الأسئلة بقلق وارتباك.

حينذاك لم يتمالك أحمد أعصابه، فهب منتصباً، وألقى نفسه إلى أبيه يعانقه، وانفجر بالبكاء المرير مردداً:

ـ أبي.. يا أبي.. آه..

ولم يستطع أن يكمل ما أراد الإفصاح عنه، فذهل الأب، وأدرك مصاب ولده الذي لم يعهده مرة هكذا في جزعه وبكائه منذ إعدام صلاح! فأخذ يربت على ظهره بحنان ولطف محاولاً تهدئته:

ـ هون عليك يا حبيبي، هدىء من روعك، وأخبرني عن الأمر.

هز أحمد رأسه، وحاول الكلام، إلا أنه غرق في دموعه من جديد، فراح الأب يهزه من كتفيه:

ـ تكلم يا بني.. ما عدت أحتمل!

في تلك اللحظات جاءت أم عادل مسرعة متعثرة، وهي تستفهم عن الأمر مضطربة:

ـ ماذا؟.. ماذا هناك؟. أمصيبة جديدة؟!..

ـ السيد..

قالها أحمد، وصمت، فبادره الأب:

ـ أي سيد تقصد؟!.. وماذا به؟!..

ـ السيد الصدر..

فاعترت الأب رعشة هائلة، وهتف:

ـ السيد محمد باقر!.. ما الذي حدث له؟!

ـ لقد قتلوه.. المجرمون.. قتلوه.

فغر الأب فاه! وتمنى لو يكون سمعه قد اختلط عليه، ووضع يديه على رأسه:

ـ يا إلهي!.. ماذا أسمع!؟

ـ أقول إن البعثيين قتلوا السيد الصدر.

وقعت الكلمات كالصاعقة على أبي عادل، فلطم جبهته بلا شعور، ودمدم زاعقاً:

ـ إنها القيامة.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

في حين هتفت أم عادل بذهول:

ـ لا لا لا.. السيد الصدر.. يا لهول المصيبة..

أما شيماء التي كانت مقبلة تستفهم عما يحدث؛ فقد عصر الخبر قلبها؛ فأغمضت عينيها، وقضمت شفتيها بقوة، واتكأت على الحائط:

ـ المجرمون.. يا الله.. متى يكون الانتقام؟..

وياسر الذي كان يسير خلف شقيقته، اتجه نحو أمه، وألقى بنظره إليها، وقد هزه ذلك المنظر الرهيب، دون أن يدرك تماماً ماذا يعني مقتل السيد محمد باقر الصدر، فسأل بلهفة:

ـ ما الذي يجري؟.. لو لم يكن أحمد هنا، لاعتقدت أنه قد لاقى مصير أخي صلاح.. قلبي يطرق بشدة.. يكاد يخرج من صدري.. لقد صرفونا من المدرسة.. ولم أدر لماذا..

خيم على البيت جو كئيب، وصمت مطبق، لا تسمع خلاله سوى همهمات أحمد، وهو يتحدث مع نفسه:

ـ إن الأيادي التي تجرأت على السيد.. يجب قطعها.. هذا يومك يا طاغية.. سترى..

ـ ولكن.. هل أنت متأكد من الخبر؟!.. وكيف تم ذلك؟.. ألا تعتقد أن السلطات أشاعت هذا الخبر الكاذب بين الناس، لتتلمس حقيقة ردود الفعل؟!.. هذا أمر محتمل.

قال أبو عادل ذلك، وهو يمني نفسه أن لا يكون الخبر صحيحاً.

وبصوت ضعيف ومتقطع كأنه الهمس، أجاب أحمد:

ماذا تقول يا أبي؟!.. القضية أكيدة، ولا تقبل أي شك، والمرجح أن الجريمة تمت قبل ثلاثة أيام.

وبعد لحظات من الصمت، عاد إلى القول:

ـ المصيبة الأُخرى، أنهم قتلوا معه شقيقته العلوية.. بنت الهدى..

وقبل أن ينتهي أحمد من كلامه، انتفضت شيماء ولطمت خديها، وقد اعتلى وجهها غضب عارم، وهي تسمع:

ـ يا للهول.. بنت الهدى.. العلوية أيضاً؟! هذه مربيتي.. عرفت الوعي على كتبها وفي مدرستها..

أرادت أن تصرخ فأمسك بها أبوها، محاولاً تهدئتها.

ـ ربك جبار منتقم يا بنيتي.. يمهل الظالم ولايهمله. أيام الطاغية زائلة لا محالة.. تعالي يا بنيتي، تعالي..

بعد أن هدأ قليلا روع الجميع، ودخلوا واحدا تلو الآخر إلى صالة الاستقبال؛ التحق بهم أحمد ومعه زوجته ياسمين، بعد أن غير ملابسه بالسوداء، وهو يمسح وجهه ويديه بالمنشفة؛ فأخذ يحدثهم بأنفاس متقطِّعة:

ـ لقد كنا نتوقع ذلك تماماً، وبالأخص بعد أن أصدر صدام قراره باعدام كل من ينتمي إلى الدعوة، وما تبعه من اعتقالات عشوائية، وإعدامات جماعية، وحملات تسفير آلاف العراقيين إلى إيران..

ثم استأنف كلامه، بعد أن صمت للحظات مجهداً ومتأثراً:

ـ الحكومة كانت تعلم أن السيد الشهيد الصدر يشكل الخطر الأعظم عليها، فقررت التخلص منه للحيلولة دون بروز خميني جديد في المنطقة.. وتحول العراق إلى دولة إسلامية.

وما لبث أن اعتدل في جلسته، وضبط نبرات صوته، وبلع بريقه منفعلا، وأتبع بالقول:

ـ أيام.. ويبدأ الوفاء لدمائك يا سيد.. ولدماء آلاف الشهداء..

١٠

أُنيطت بأحمد مسؤولية مجموعة مسلحة، كانت فاعلة جدا، تولاها بنفسه، فشارك في تنفيذ ضربات مسلحة موجعة ضد أجهزة السلطة.

في عملية كبيرة، قام عشرة عناصر من المجموعة؛ يتصدرهم أحمد بالهجوم على مديرية أمن الرصافة في بغداد، أثناء اجتماع أمني مهم، بعد ما أفجعت الناس، بالاعتقالات، والتعذيب والقتل.

بعد أن أدى المجاهدون صلاتي المغرب والعشاء واغتسلوا للشهادة، وكتب كل وصيته بيده؛ كتب أحمد:

«دعاني قائدي الصدر.. إلى الرد على اغتياله..

دعاني الذين اغتيلوا إلى الثأر لدمائهم البريئة الطاهرة..

إذا رحلت إلى حيث الصدر.. إلى حيث بنت الهدى.. إلى حيث أخي صلاح؛ فلا تحزنوا..

لا تحزني يا أم علي.. لا تحزني يا أُمي وأنت يا أبي.. قبلاتي لياسر وعلي..».

في الوقت المحدد سلفا، انطلقوا من أربعة مخابئ..

سيارة القيادة تحمل أحمد وثلاثة مهاجمين، وأُخرى تحمل ثلاثة أيضاً، وكذلك دراجة بخارية يستقلها واحد، فيما شكل اثنان بقيا راجلين نقطة دعم ومراقبة على الأرض.

ستة مهاجمين نفذوا إلى الداخل، مواجهة عنيفة ورصاص كزخات المطر؛ قاموا بجمع كمية من وثائق المديرية، ووضعوها في حقيبة استلمها واحد كان بانتظارهم، ونفذ من المبنى راكضا، فوجد سائق الدراجة البخارية بانتظاره، فقفز، واستقر خلفه، وطارت الدراجة بهما مع الريح.

تمكن أحمد من الإفلات عبر الأزقة المجاورة، بعد أن أصيب في كتفه بعيار ناري؛ فيما بقيت قوة من أمن السلطة وصلت على الفور إلى مسرح العملية؛ تلاحقه وتبحث عنه؛ فارتاد زقاقا مظلما متعرجا، تعثر خلاله مرارا، فيما كان يترنح.

انحرف نحو حديقة متشابكة النبات، توشك الأغصان فيها أن تسد المنافذ على العابر خلالها.

نقر برؤوس أصابعه على باب خشن تشققت ألواح خشبه، وهمس:

ـ جمال.. افتح.. أنا أحمد..

فتح الباب، فأطلق صريرا طويلا، شق سكون الليل، وتلاشى في تلك الساعة المتأخرة، وترافق معه صوت لا يكاد يسمع:

ـ تفضل..

دخل أحمد وهو يتمتم:

ـ نبيل أُصيب.. وأجهزوا عليه عن كثب.. أنا أُصبت في كتفي..

وقاده شاب نحيل الجسم، طويل القامة، تجعد شعره الأسود الكثيف، واتسعت حدقتا عينيه قلقا، فألقى به على سرير عتيق شبه مخلع..

دقائق مرت، حضر طبيب صديق. وبعد عملية بسيطة تألم أثناءها أحمد جدا، لكنه شد صدغيه، وأكم فاهه بشفتيه، فلم يتأوه، قال الطبيب بلطف وفرح:

ـ الحمد لله.. الرصاصة نفذت خارجا.. بسيطة.. يومان راحة وتتعافى..

ثم غاب بجثته الضخمة، وقامته القصيرة، وعيناه الصغيرتان تلمعان تحت عدستي نظارته السميكتين، بعدما جمع أدواته سريعا وانصرف.

هتف الشاب بأحمد:

ـ حمداً لله على سلامتك.. مسكين نبيل.. بل محظوظ.. اختص بالشهادة.. الوثائق معي.. كدت أذهب في حادث سير لشدة سرعتي..

لم ينم أحمد خلال تلك الليلة من شدة ألم الجرح الذي في كتفه، وألم الجرح الذي حز في نفسه حزنا على مقتل نبيل. وكان جمال أحد المشاركين في العملية ساهراً إلى جانبه، يسلِّيه، ويطمئن على سلامته، لأن الطبيب لم يستبعد حصول نزيف في كتف أحمد..

هتف أحمد منفعلا:

ـ كم هم أوغاد.. حتى الجرحى لا حرمة لهم لديهم.. ولا الموتى.. إذ بعد أن أصابوه برصاصات غادرة، عادوا ليمزقو جسده بأحذيتهم وبالسكاكين..

أجابه جمال:

ـ رجائي لك أن تهدأ حرصاً على سلامتك.. لا يصح أن تحزن على شهيد، لقد سبقنا.. أنا أغبطه.. أتريد ثأراً.. وانتصاراً بلا دماء؟.. وبلا آلام؟.. هون عليك يا أخي.. تلك هي سمات الثورة.. طريق الجهاد..

وعاد أحمد إلى التمتمة مع نفسه، بعدما ذهب زميله لتحضير الشاي:

ـ ماذا عساهم فاعلين الآن في البيت؟.. لا يمكنني الاتصال بهم.. الخطوط مراقبة حتماً. الأهل يشكلون أحد العوائق على طريق عملنا.. ولكن يجب أن نبعدهم عن الخطر قدر الإمكان؛ لأن السلطة تدمر أي عائلة ينتمي أحد أبنائها إلى الحركة الإسلامية..

وبقيا هكذا، يتناولان أطراف الحديث، حتى أذن الصبح. صليا وذهبا في سبات دام حتى قبيل الظهيرة.

خرج جمال لبعض الوقت، وعاد ببعض الخبز والزبدة والمربى، وبجريدة تناولها أحمد، وراحَ يتصفحها بحثاً عن الخبر الذي يفرح قلبه، ولكنه لم يجد خبر الهجوم على مديرية أمن الرصافة..

ـ أنظر إلى هذا التعتيم! عملية بهذا الحجم لا يذكرونها..

ضحك جمال وهتف:

ـ هذا طبيعي يا صديقي.. السلطة تحتكر حتى الأنفاس فكيف بالإعلام!!

في اليوم التالي عاد أحمد إلى النجف، عبر طريق لا تستقر على حال؛ تهادى به على امتدادها باص عمومي.

كان سارحاً مع خواطره يهتف في صمته:

ـ ماذا فعلوا في البيت أثناء غيابي؟ لاشك في أن القلق قتلهم..

وما أن طرق الباب، حتى فتح أبوه، فبادره قائلاً:

ـ ثلاثة أيام.. لا خبر.. لا سؤال.. لم أنت هكذا يا ولدي؟..

رفع أبو عادل يده المرتعشة ليضربه؛ من شدة لهفته وخوفه عليه وخوار أعصابه، ولكنه انفجر باكيا بمرارة. أمسك أحمد بيد أبيه وأخذ يقبلها ويمسح بها دموعه وهو يخرج بصعوبة من شفتيه الشاحبتين ابتسامة رضى..

ـ رضاك علي يا أبي.. فدتك نفسي..

ثم هطل مطر الأسئلة غزيراً، وبللت دموع أم عادل ما كانَ يحمل من الأوراق هاتفة:

ـ لقد كدت أموت.. لماذا تعذبنا؟.. أما كفانا مصائب؟.. أليس لك أهل؟.. وزوجة؟.. وولد؟.. وما هذا الرباط على كتفك؟..

أما شيماء، فحدقت فيه وشهقت:

ـ لماذا شحب وجهك؟.. وغارت عيناك؟ وذبلت شفتاك؟ ماذا بك.. أين كنت يا أخي؟..

أخيراً أنقذه أبو عادل داعياً إلى مائدة العشاء، إذ قال:

ـ قلنا لهم في الشركة إنَّك في وعكة صحية.. إحصل على تقرير طبي، لتقدمه لهم.. هيا إلى العشاء.. ويكون للبحث صلة.

وتقدمت نحوه زوجته ياسمين بلهفة ودموع؛ وقد فعل بها القلق فعله فقالت:

ـ حمداً لله على سلامتك.. علي انتظرك طويلاً.. حتى نال منه النعاس، فنام.

جرته بحنو إلى غرفة النوم، وعانقته بشوق بالغ، وساعدته في تغيير ملابسه. وشهقت شهقة كاد صداها يخرج إلى غرفة المائدة؛ وهي تشاهد الرباط المنقوع بالدم على كتفه المصاب. لكن أحمد كان يعيش نشوة الانتصار؛ برغم كل ما لقيه من متاعب خلال الأيام الثلاثة الطويلة. فقد عاد، ومعه مجموعة من الوثائق التي تم الحصول عليها أثناء العملية. يكفي أنها كشفت في قسم منها عن المتعاونين مع السلطة، وعن المطلوبين والمستهدفين من الدعاة والمجاهدين، وبعض خطط السلطة في قمع الحركة

الإسلامية؛ مما كان له أثر كبير في تفعيل العمل المسلح في كامل العراق. وقد بنيت على أساسها خطط الدفاع الاحترازي التي أفشلت العديد من عمليات السلطة، وأنجحت الكثير من العمليات الجهادية.

## ١١

قبل بزوغ فجر ذات يوم من أيلول الساخن، وخلف منضدة صغيرة داخل غرفة النوم، يضيئها مصباح منضدي شاحب النور، جلس أحمد يحرر منشوراً داخلياً، يفترض أن يوزعه لإخوانه خلال الليالي القادمة. وكان قد أنجز هذه العبارات:

«خلال ما يزيد على العام، وحتى هذه اللحظة، وقعت أحداث كثيرة وكبيرة، في عراق البعث، منها إعدام الآلاف من خيرة رجالات العراق، من علماء الدين، والجامعيين، وعامة الشعب، والتي توجت بالجريمة الكبرى في إعدام الإمام السيد محمد باقر الصدر، وأخته السيدة بنت الهدى وحملات التهجير الوحشية التي طالت عشرات الألوف من العراقيين».

وتوقف قليلاً عن الكتابة، ليستجمع أفكاره، ثم عاد إلى تحرير العبارات:

«وكان هذا جزءاً من الحرب التي شنها نظام البعث ضد الشعب العراقي».

ووضع قلمه وأوراقه جانباً، وكذلك نظارته الطبية الجديدة التي لم يتعود عليها بعد؛ ليوقظ زوجته للصلاة. وبعد أن توضأت، أخذت تعد الشاي، وفطور الصباح، ثم عادت إلى غرفتها لترتبها، وترتب هندامها، فوجدت زوجها الذي أغمضت عينيها على صرير قلمه؛ وقد استأنف الكتابة، وغرق في بحر أفكاره وأوراقه، فاندهشت، واحتدت بشدة، وهتفت به في انفعال ملحوظ:

ـ أحمد!.. ألم تشبع؟.. لقد تركتك منذ ليل أمس وأنت تكتب، ولم تزل!..

وبعد هنيهة، حول نظره نحوها، فوجدها تحملق فيه، فابتسم قائلاً:

ـ لا، لا.. إطمئني، لقد نمت حوالي ثلاث ساعات، ونهضت قبل الأذان، وبعد أن أديت الصلاة؛ استأنفت الكتابة؛ لأني يجب أن أسلم هذه الأوراق اليوم.

فعادت لتقول:

ـ ولكنك بهذا تقتل نفسك.. لا يمكن أن تستمر بعملك،

وتقف على رجليك، وأنت تنام في اليوم ثلاث ساعات فقط، أو أربعاً، إرحم نفسك يا رجل..

فقاطعها ليضع حداً ينهي به النقاش الذي يتكرر يومياً تقريباً:

ـ لا بأس عليك يا عزيزتي.. سأنام طويلاً في يوم ما.. سأشبع نوماً.. لا تخافي.. النوم في هذه الأيام جنون وعبث بالنسبة لي. سأستريح طويلاً عندما يفتح الله علينا..

لما لم تجد ياسمين فائدة من حديثها رمقته بنظرة عتاب، ومضت في سبيلها.. بينما اتجه هو لإكمال المنشور..

ـ «لذلك يتحتم على المجاهدين أن يضاعفوا جهودهم، لإسقاط تلك الطغمة الشريرة المسيطرة على مقدرات العراق، والتي تسعى لجر شعبها إلى الدمار الشامل..».

وحين انتهى، كانَت الساعة تقارب موعد انطلاقه إلى عمله.

وبسرعة فائقة، ارتدى ملابسه، واحتسى قدح الحليب الذي كانت أعدته له زوجته. ثم ودعها ليذهب كعادته مبكراً إلى الشركة هاتفاً:

ـ إلى اللقاء يا عزيزتي.. سأنام الليلة.. بلا مناشير.

## ١٢

أيام مرت. كان أحمد في الطريق إلى العمل، حيث يذهب راجلاً غالبا، بعد أن يتعبه الوقوف بانتظار حافلة، أو سيارة أجرة. اعترضته إحدى السيارات، وقبل أن يحاول إخفاء دهشته من هذا الاستفزاز؛ ناداه سائق السيارة:

ـ أحمد.. إصعد.. إصعد بسرعة.

حملق في وجه المنادي فإذا به أحد زملائه القدامى، فاصطنع الهتاف:

ـ آه، لقد أفزعتني يا سمير، هكذا أنت دائماً.. لا تكف عن المزاح، في كل الظروف!

ـ أي مزاح يا رجل!؟ ليس هذا وقت الكلام.. قلت لك إصعد بسرعة.

وما هي إلاَّ لحظات، حتى انطلقت السيارة بهما تنهب الأرض نهباً، فيما لم يزل أحمد غارقاً في دهشته.

ـ الحرب يا عزيزي.. الحرب!.. ألا تسمع الأخبار؟..

قالها سمير بانفعال، وهو يعبر عن خطورة الموضوع، فرد عليه أحمد ببرود، غير مكترث بما سمع:

ـ وماذا بك تقود السيارة هكذا بجنون؟!.. لم العجلة؟!.. احترس، هل تريد أن تلقينا في التهلكة؟!.. يا رجل؟!..

كان سمير يقود السيارة بسرعة غير طبيعية، وبطريقة عابثة، ولكن ببراعة واحتراف فائقين، وبلا خوف، فأربك بسرعته السيارات التي كانت تفر من أمام سيارته، وعلى جانبيها، وهو يهتف:

ـ حرب.. حرب! نحن وإيران، حرب يا أبا علي! السيد الرئيس أعلن الحرب على إيران!!

ـ نعم، نعم.. لقد علمت بذلك.

أجاب أحمد وهو يتأفف، وينظر إلى الشارع من خلال زجاج السيارة الجانبي، مما أدى إلى نفاد صبر زميله.

فعاود القول:

ـ أتقول نعم نعم؟!.. والدنيا مشتعلة.. والوضع يتجه إلى المجهول؟..القوات العراقية على وشك دخول الأراضي الإيرانية.. وأنت تقول ما تقول.. غريب أمرك.. ما موقفك من هذه الحرب؟.. ألا تؤيد الرئيس في حربه؟..

أجاب أحمد وهو شارد الذهن، يحلل تصرفات ذلك الرجل الذي طرأ عليه فجأة:

ـ وماذا تريدني أن أقول؟.. وما الذي في يدي أن أفعله؟.. ومن أنا في نظرك.. هل بإمكاني أن أذهب إلى

الحدود.. وأُلزم الطرفين بالإقلاع عن الاقتتال؟.. زنها بعقلك يا رجل؛ لتعرف سبب لامبالاتي..

فقاطعه سمير متأففاً:

ـ يا لبرودة أعصابك يا أخي..! إن أمرك عجيب والله!..

بعد تلك المشاكسة القصيرة، طلب أحمد من زميله إيقاف السيارة رغم إلحاح الأخير على إبقائه معه حتى إيصاله إلى مكان عمله.

أخيراً أوقف الرجل السيارة، فنزل أحمد وهو يتمتم:

ـ لا أرى سميراً هذا سوى رجل مخابرات.. أراد الإيقاع بي.. أعرف أنني تحت المراقبة.. منذ إعدام شقيقي صلاح..

ومشى وهو يتابع التمتمة بانفعال:

ـ صحيح أن من شب على شيء شاب عليه.. أيام الدراسة كان مخبراً لإدارة المدرسة.. وهو اليوم مخبر للأمن.. عليه اللعنة..

ومضى يخطو في شوارع النجف الرئيسية، وقد لاحظ بوضوح الوجوم والهلع والدهشة التي سادت وجوه الناس، وعلائم القلق والإحساس بالمستقبل المجهول، وحالة الارتباك التي كانت تسود الشارع العراقي..

كما رأى مكبرات الصوت التي زرعتها السلطة في معظم

الطرقات العامة، وهي تملأ الأرض ضجيجاً بالكلمات والأغاني الحماسية التي تمجد بالرئيس، وتذيع له مقاطع من خطبه، وتستنفر الهمم لمعركة القادسية الجديدة، فضلاً عن المارشات العسكرية التي تملأ الأفئدة بالخوف، والحماس، والبيانات المتوالية، والتهديد، والوعيد، وبشائر النصر الآتي!

ومضى يتابع سيره غير مكترث بتلك الضوضاء التي كانت تسود حوله؛ وهي تقرع في الرؤوس، فتصم الآذان..

كان رأسه مزدحماً بالأفكار، والتحليلات.. والمشاريع..

ومضت تكر به الخواطر، حتى بلغ مركز عمله وهو يتمتم:

ـ أي سخافات تلك؟.. أي معركة هذه؟.. يجب أن يخيب هذا الطاغية.. وتتقهقر فلوله.. يجب أن نتحرك بقوة وشمول.. وإلا ضاع كل ما أسسه السيد الشهيد الصدر.. وذهب هباء دمه.. ودماء كل الشهداء.. وخابت الثورة..

# الوداع الأخير

## ١٣

عاد أحمد إلى البيت متأخراً مساء أحد الأيام، فوجد الأهل قد بدأوا يستعدون لتناول طعام العشاء، باستثناء شيماء التي كانت جالسة في زاوية الصالة، وهي غارقة في مطالعة جريدة الجمهورية، فيما كان ياسر وعلي مستغرقين في النوم..

وكالعادة، أبدت أم عادل قلقها من عادة أحمد في التأخر هذه الأيام مساءً، فهتفت بحدة:

ـ إصغ جيداً يا ولدي.. أنا لم أعد أتحمل مصيبة جديدة.. ما حل بي كفاني.. يجب وضع حد لما يجري.. هل قلبك من حجر؟!..

ولم يدخر الآخرون جهداً في تأييد كلام الأُم؛ فبادر أبوه بالقول:

ـ الكل في الدار على رأي أُمك.. ومن يسكت عن ذلك.. فليس إلاَّ مرغماً.. تفضل إسألهم بنفسك.

فهم أحمد إلى أُمه، وقبل رأسها وأخذ يعتذر:

ـ تأكدي يا حنونتي أن الذي يؤخرني هو تراكم الأعمال في الشركة.. وطمئني قلبك أن لا شيء يهددني.. لا خطر علي مطلقاً..

في حين أن أمه كانت تعلم، وكذلك الآخرون، بأن سبب تأخره هو نشاطه المعارض للحكومة ليس إلا.

وحاول أبو عادل تغيير مجرى الحديث، فقال له:

ـ هيا أسرع يا بني.. عليك بطرف المائدة، فقد انتظرناك بما فيه الكفاية، هيا عجل.

والتفت أحمد إلى شقيقته المنشغلة، وبادرها بالسؤال:

ـ شيماء.. يا شيماء.. لماذا لا تتركين المطالعة يا عزيزتي؟ وتأتين إلى المائدة؟

ـ نعم.. نعم.. سآتي.. دقيقة واحدة فقط.

أجابت باختصار، دون أن ترفع عينيها عن الجريدة.

فتدخل الأب قائلاً:

ـ دقيقتها هذه قالتها قبل ربع ساعة.

وبابتسامتها العذبة المعهودة، نزلت شيماء، عند رغبة الأهل، لكنها وما كادت تنهض، وتترك الجريدة، حتى شد

نظرها بقوة خبر مهم للغاية! فنادت أحمد قبل أن يذهب لتغيير ملابسه:

ـ أبا علي.. تعال وانظر!

وقبل أن يصلها، بادرته بانفعال وعطف:

مواليدك مطلوبة للالتحاق بجبهة الحرب. تعال واقرأ الخبر بنفسك!

في هذه الأثناء حملقت جميع العيون مشدودة نحوها، تستطلع الخبر.

أما أحمد، فإنه تسمر في مكانه، وأغمض عينيه؛ لا لأن الخبر فاجأه؛ بل لأنه لم يكن يرغب في أن تعلم العائلة بالأمر.

فتوجه بعتابه إليها، هاتفاً بها بحدة:

ـ أوه يا شيماء ما كان عليك أن تجهري بالخبر هكذا.

وبعد لحظة صمت، توجه بالحديث إلى والديه وزوجته:

ـ لقد كنت أعلم بذلك، وما كنت أرغب أن أصدمكم.

فنهضت أمه صوبه، وأمسكت به من ذراعيه، كأنها تستعطفه، وقالَت:

ـ وما نيتك يا بني؟.. ماذا ستفعل؟ قل لي ماذا ستفعل؟!..

وبكلمات واثقة، وصوت هادىء، أجابها وهو يمسح بيده على شعرها ووجهها برفق، وتودد:

ـ اطمئني يا أُمي الحبيبة.. اطمئني، لن أذهب إلى الجبهة، إن أُموراً كثيرة تمنعني من ذلك.

وعبر الأب عن قلقه الشديد بالقول:

ـ ولكن.. كيف ستتخلص من..

فقاطعه أحمد بكل أدب:

ـ هون عليك يا أبي، سأتحدث معك لاحقاً بكل التفاصيل.

وسار نحو غرفته بتأن، في حين خيم صمت مطبق على الصالة التي كانَ يسودها الظلام بسبب التعتيم، جراء احتمال حدوث غارات جوية إيرانية؛ باستثناء بعض الشموع الخافتة التي تزيد الموقف رهبة. ولم يمد أحد يده إلى الطعام، بل غرقوا جميعاً في بحار من الأفكار.. لا حدود لها..

قالت شيماء في سرها:

ـ إذا ذهب.. تكون مصيبة.. وإن لم يذهب.. فمصيبتان..

ـ سنمسي على صلاح وأحمد.. يا إلهي إني أرتعش.. هل يعدمون أحمد إذا لم يلتحق بالجبهة؟..

وكانت ياسمين تصرخ في سكون خاطرها:

ـ يا ويلي.. هل سيتيتم علي؟..وهل ساترمل؟..

فيما كانت دموع أم عادل تقول:

ـ لعلّي كتب علي الشقاء.. ليتني أموت.. فلا أسمع ما قد أسمع به.. ولا أرى ما يحدثني قلبي أني سأراه..

وما هي إلاَّ دقائق حتى عاد أحمد بعد أن غير ملابسه، وهو يمسك بيده ملفا، فكسر حبل الصمت بقوله:

ـ وكيف تتصورون أني سأذهب بقدمي للحرب؟!.. المسألة ليست لها علاقة بالخوف من الموت.. أبداً، ولا بإعالتكم أو الابتعاد عنكم، بل إن المانع الأساس هو العقيدة، فالناس العاديون يرفضون محاربة إيران، لأن عاطفتهم تمنعهم من ذلك، فكيف بنا نحن؟

ثم نظر إلى أهله واحداً بعد الآخر، بينما كانت أمه مطرقة، واضعة يديها على صدغها، وهي تهز رأسها معبرة عن قلقها وحزنها، فقالت مضطربة:

ـ أنا خائفة أن أفقدك يا ضياء عيني.. الخطر داهم ولا من يرده عنك..

وكان أبوه في ضيق شديد وعدم ارتياح، فقد هتف:

ـ التأزم أربكني وقض أعماق نفسي.. ولا أدري كيف يمكنني أن أجنبك ما أنت معرض له..

طلب أحمد من الأهل أن يعودوا إلى الطعام، إلاَّ أن أحداً لم يفعل ذلك، وكأنهم في واد آخر تماماً.

وبعد لحظات من الصمت، رفع الأب رأسه قائلاً:

ـ أحمد.. يا ولدي يا أحمد.. نحن نعلم كل هذا.. ونعلم أن صداماً أشعل الحرب.. لكن الذي لا أعلمه وأريدك أن تحدثني عنه؛ هو كيف ستعالج قضية عدم التحاقك بالجيش؟! ألا تعلم بأن عيون السلطة تنتشر في كل زاوية وزقاق وشارع؟!.. وأن عقوبة التخلف هي الإعدام بلا محاكمة؟

فقال أحمد بإصرار:

ـ يا أبي. المسألة في غاية البساطة.. سوف أبقى في البيت متخفياً، وسأحاول الإقلاع عن الخروج.. ألا يكفي هذا؟!

توجهت إليه أمه تستعطفه بصوتها الذي بحته الحسرة:

ـ لكني خائفة عليك يا بني.. قلبي ينفطر من شدة الألم.. أخاف أن..

فقاطعها أحمد بانفعال:

ـ لا تخافي من شيء أبداً.. رعاك الله يا أُمي الحبيبة.. هو الحافظ.. وكل ما قدر لنا يجري علينا.. سأكون شديد الحذر بإذن الله.. إطمئني..

بقي الحديث مستمراً حتى ساعة متأخرة من اللَّيل، وكان الجميع يحاولون التأكيد على أحمد بأنه شمعة بيتهم التي إذا انطفأت، سيبقى البيت مظلماً إلى الأبد..

وقطع الحوار صوت شيماء هامساً، يشق لحظات من الصمت، وقد أذبل النعاس عينيها الخضراوين، وتلألأ فيهما الدمع:

ـ سيمسي بيتنا ليلاً دامساً.. إذا غيبتك المصيبة.. أنت شمعة البيت المضيئة.. ناراً.. ونوراً..

فيما كان أبو عادل يتمتم مع نفسه، دون أن يخاطب أحداً:

ـ إن كلا الأمرين خطر على حياته.. إذا التحق بالجيش.. سيكون على شفا خطر الموت المريع.. إذ إن الجبهة في ذروة اشتعالها.. وإذا لم يلتحق.. سيعتبر فاراً من الجبهة.. ويكون عرضة للمداهمة والاعتقال بين لحظة وأُخرى.. بالله عليكم أخبروني عن حل..

أخيراً حسم الكلام أحمد بالقول:

ـ أتفهم ماتفكرون به.. هدئوا من روعكم.. لكن ليكن في علمكم أني سأعمل وفق ما يفرضه علي ديني..

.. وهكذا كان.

## ١٤

بقي أحمد في البيت عدة أسابيع، لا يخرج منه إلا عند الضرورات القصوى، بغية ترتيب وضع ملائم له.. هوية مزورة أو نماذج إجازات عسكرية، أو أي شيء يمكنه من الخروج دون أن يتعرض لخطر الاعتقال والملاحقة.

وفي ظهيرة أحد الأيام الشتائية الممطرة، ووسط أصوات الرعد، والعتمة التي أشاعها الغمام الكثيف، جلس مطمئناً في غرفته، يداعب صغيره علي..كان يحدثه عن أخيه الذي سيولد، فقال مداعباً شعره:

ـ بعد ثمانية أشهر ستلد لك أمك أخاً أو أختاً، ليلعب معك ويسلّيك، وتمزح معه، كما كان الحال مع آمنة وهشام.

وفجأة، سأل علي أباه، وكأنه تذكر شيئاً:

ـ بابا.. منذ زمن بعيد وأنا لا أرى آمنة وهشام، وعمي

عادل أيضاً. حقّاً يا بابا.. أين عمي عادل؟!.. ومتى سيعود؟!.. في كل مرة تقول لي سافروا، وسيرجعون، ولكنهم لم يرجعوا إلى الآن.. لماذا؟!.. أريد أن ألعب مع آمنة وهشام..

تحولت ابتسامات أحمد إلى صمت رهيب، فاحتضن ابنه، وقبلَه بعطف، وكأنه لم يرَه منذ أمد بعيد، ثم أجلسه أمامه على السرير، وبدأ يخاطبه:

ـ حبيبي علي.. لا تقلق.. سيعود عمك عادل ومعه آمنة وهشام وأمهما، لقد سافروا إلى مكان بعيد. وسيعودون حتماً يا ولدي.

لكن، يبدو أن قلب علي كان يحدثه بشيء آخر، فخنقته العبرات، وأعاد السؤال على أبيه:

ـ لم أعد أصدق هذه الوعود.. سيعودون.. متى؟.. وعمي صلاح سافر هو الآخر.. ولم يعد.. متى يعودون؟.. قلبي يقول لي: لن يعود أحد..

وسرح أحمد بخياله إلى أخيه عادل، فحول نظره عن صغيره، وبدا كأنه يحدث نفسه:

ـ إيه يا علي.. لقد سافر عمك حقاً.. ولكن.. لا ندري

متى يعود.. ولا ندري.. أيعود أم لا؟.. إنه الآن كالأسد الهصور المقيد بالسلاسل..

حملق الطفل في وجه أبيه، وكأنه يستفهم عما كان يتمتم به:

ـ ماذا قلت؟.. أنا لم أفهم.. لم خفضت صوتك؟.. لماذا تتكلم مع نفسك! حدثني انا..

وبعد لحظات من الصمت، استأنف الأب حديثه، فقال:

ـ عمك عادل يا صغيري كان بطلاً.. هماماً.. ولست الوحيد الذي تنتظره.. بل كلنا بانتظاره.. وكل إخوانه بانتظاره.. عمك عادل.. يا بني.. كان ربيب الكفاح والمحن والمصاعب.. كان مجاهداً.. يصل الليل بالنهار.. يبحث عن رضى الله في كل خطوة يخطوها.. ويفكر بالعراق وبالبيت الكبير.. بيت الإسلام..

بينما استمر علي في حيرته، وهو لا يفقه شيئاً مما قاله أبوه، حيث هتف مقاطعاً:

ـ بابا.. لم أفهم شيئاً مما قلته سوى أن عمي عادل بطل.. لكني لم أفهم هل سيعود؟.. وهشام؟.. وآمنة؟!..

وسكت للحظة يبتلع من ريقه، ثم تابع الكلام إلى أبيه

الذي أسند رأسه إلى الجدار الملاصق للسرير وغرق في صمته ودموعه:

ـ بابا.. بابا..

لم يحرك الأب ساكناً، فعاود الطفل متابعة الكلام:

ـ بابا.. ماذا أصابك؟.. لن أسألك بعد اليوم عن أحد.. لقد ذهبوا جميعاً.. لن يعود منهم أحد..

أخيراً انتبهَ أحمد إلى أن طفله يحدثه، فاستدرك بالقول:

ـ نعم، نعم يا حبيبي.. ماذا قلت؟..

وهتف علي بحماس:

ـ أريد يا أبي أن أكون مثل عمي عادل!..

فضمه أحمد إلى صدره بقوة وقال:

ـ مثل عمك عادل؟!

وبعد برهة قال له:

ـ ستكون يا بني، ستكون بالتأكيد، ، ولكن قلبك الصغير لا يزال..

في تلك اللحظة رن جرس البيت.

## ١٥

رن جرس البيت، وطرق الباب بعنف، فهب أحمد لفتحه، إلا أن أمه خرجت من غرفتها على الفور، وصرخت بوجهه:

ـ لا.. أحمد لا تفتح أنت.. لا.. ياسر يفتح..

فقاطعها بحدة وقد تسمر في مكانه:

ليطمئن قلبك يا حنونة.. أكثر من اللزوم.. إني انتظر أحد الأصدقاء.. الدكتور علاء الذي تعرفينه.. ولا بد أن يكون هو القادم.. كفى بك ارتباكاً..

وفتح الباب، وإذا به يفاجأ بما لم يكن يتوقعه..

العشرات من قوات الأمن والجيش الشعبي اقتحموا الدار:

ـ أحمد عبد الرزاق؟.. أنت؟..

لكنه انطلق مذعوراً هارباً كالبرق نحو الباب الخلفي باتجاه سطح الدار، فلحقوا به..

هتف به صوت مهدداً:

قف.. أو نطلق النار.. مكانك..

ولم يستجب لهم، فأطلقوا وابلاً من الرصاص بشكل

عشوائي، ولكنها لم تصبْه، بل حطمت جهاز التلفزيون ومزهريات، وزجاج الشبابيك، وأصابت الجدران، وخلقت ذعراً وصراخا في البيت. ولما حاول أحمد الهبوط إلى الشارع العام بعد أن قفز إلى سطح الجيران، فوجىء بسيارات السلطة، وقد طوقت البيت والشارع.

في هذه اللحظة، وصل أفراد الأمن إليه، وقد صرخ به أحدهم:

ـ قف.. إرفع يديك.. لا تتحرك..

وألقوا القبض عليه، بعد أن رأى أن المقاومة أو الهرب لا جدوى منهما.

أخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً بأيديهم وأرجلهم، وزعق به أحدهم:

ـ خذ أيها المجرم.. خذ يابن العاهرة..

ثم أنزلوه إلى داخل الدار، وسط صرخات الأم وتوسلاتها، ودموع الأهل.

وبادره الضابط المسؤول، بصوته الأجش، بعدما انتصب أمامه بجثته الضخمة، وعينيه اللتين تتقدان شرراً، وهو يشده من كتف قميصه:

ـ أنت أحمد عبد الرزاق..؟

لم يقو أحمد على النطق..

صرخت أم عادل معولة:

ـ أرجوكم.. أليس عندكم أمهات؟.. أتوسل إليكم.. إبني ليس مجرماً.. إبني لم يؤذ أحداً.. أرجوكم.. إتركوه.. رحمة بي..

ولم يكف علي هو الآخر عن البكاء، وهو بين يدي أمه، وقد حاول أن يلقي بنفسه على أبيه، ويتعلق به، وكان يصرخ:

ـ بابا.. لا تذهب يا بابا أين يأخذونك؟.. أريد أن تبقى معي بابا لا تذهب معهم.. بابا.. بابا..

وفي حين كان أفراد الأمن يسحبون أحمد بقوة، ويضربونه، كان ينظر هو إلى ولده الوحيد علي، ويحاول السيطرة على أعصابه، حتى يتسنى له تقبيله فهتف:

ـ علي.. حبيبي.. لا تخف.. علي..

إلا أنه تعرض أثناء ذلك إلى ضربة بأخمص البندقية، وأُخرى بالهراوة على وجهه، فتسببت الثانية بخروج الدم من فمه..

حاول أبو عادل التدخل فقال وهو يرتعد:

ـ أرجوكم.. بروية.. خذوه بهدوء..

فدفعوه بقوة:

ـ اخرس.. يا رأس الأفعى.. يا عجوز الشر..

وسقط على الأرض، فبادرت شيماء وياسمين إلى مساعدته:

ـ أبي.. تنح جانباً.. إنهم لا يمانعون من قتلك أمام عيوننا!!..

ـ عمي هل أصابك سوء..

أما ياسر فكان ينظر من وراء الشباك، وهو يتميز غضباً، ودموعه تنهمر على خديه الباهتين، ويتمتم:

ـ ماذا أفعل؟.. ماذا سيفعلون به يا ترى؟.. مجرمون.. لا يرحمون..

ولم يلبثوا أن اقتادوا أحمد معهم في النهاية، وعينا أمه المحمرتان تلاحقانه، وهي صارخة:

ـ ولدي حبيبي.. تعال.. لم أودعك.. لم أُشبعك ضماً وشماً..

كان يودعها بنظراته الحزينة الواثقة، هاتفاً بعينيه وصوته:

ـ وداعاً يا أُمي.. وداعاً يا أول وجه رأيته في حياتي.. وآخر وجه أودعه.. ليتني أغمض عيني على صورة وجهك.. ولا أفتحهما بعد ذلك أبداً.. قبلي لي ولدي علي.. قولي له إن قلبه

الصغير كان أصدق في توقعاته من قلبي الكبير.. أرجو أن أراكم سالمين.. إذا عدت.. أنا قانع بقضاء الله تعالى.

ـ إخرس ياكلب.. هيا ياعميل..

قيدوا معصميه بالسلاسل، ودفعوا به إلى داخل سيارة سوداء، نهبت به الأرض، وغابت عن الأنظار خلال ثوانٍ، وهي تعيث غباراً وسط رتل من خمس سيارات.

## ١٦

في بغداد..على ضفاف نهر دجلة وسط أدغال عذراء، لم تعرفها سوى أنوار المصابيح الكاشفة ليلاً، ونور ضئيل من أشعة الشمس نهاراً، قام مبنى ضخم، مؤلف من طابق أرضي وطابقان علويان وأربع طبقات تحت الأرض..

لا شرفات لذلك المبنى، كل ما يبدو منه للعيان نوافذ مربعة، صغيرة أو متوسطة، تحت حدود السقوف بقليل، قيل إن زجاجاتها مصفحة ضد الرصاص.

ولا يبدو للناظر سوى الطبقتين اللتين تعلوان عن السور الاسمنتي المسلح المرتفع، والذي علته أسلاك شائكة عجيبة التشابك، مكهربة.. ترتعد إزاءها الطيور وتفر عنها. لذلك السور الضخم بوابة وحيدة، حديدية، سوداء، سميكة، لا تنفتح إلا أمام سيارات أمنية، خاصة، بعد أن

تجتاز طريقاً متعرجة، تمتد لبضعة كيلومترات، في أولها نقطة حراسة، ثابتة ومدججة، ومشددة.

هذا المبنى هو أحد مراكز مديرية الأمن العام؛ حيث الداخل مفقود والخارج مولود.. ابتدأت عملية التحقيق والتعذيب مع أحمد، حول التقارير المرفوعة ضده، حيث خاطبه خلال إحداها ضابط التحقيق:

ـ أحمد عبد الرزاق.. جرائمك خطيرة وغير محدودة، وكل واحدة منها كافية لتجعلك تقرأ الفاتحة على روحك، وتترحم على حياتك، فأنت لا توالي حزب البعث أولاً.. ومتأثر جداً بقضية أخويك صلاح وعادل ثانياً.. وهارب من الالتحاق بالجيش ثالثاً.. وأخيراً مقاومة رجال الامن أثناء اعتقالك.

على الرغم من أن التهم الموجهة ضده تهم خطيرة بالفعل، إلاَّ أنها أثارت غبطته بشدة؛ لأنها تعني عدم وجود أية اعترافات أو تقارير بشأن حقيقة ارتباطه التنظيمي وعمله الميداني؛ فحاول أن يدافع عن نفسه باتزان:

ـ سيدي.. أنا بريء.. أنا لا أتدخل في السياسة.. همي عملي.. وغايتي تأمين قوت عائلتي.. ولا شأن لي بأخوي.. ولا أعلم عنهما أي شيء..

حينذاك انتصب الضابط بقامته المربوعة، وأدار نحوه رقبته الغليظة، وركز عينيه السوداوين اللتين قدحتا غضبا، وتقدم نحوه، صافعاً خده بقوة، فسال الدم من أنفه وفمه.

ـ ستذهب هباءً أنت وكل أهلك.. أخواك بانتظارك.. في السعير.. يهمني ان أعرف ما هو دافعك للهروب من الجيش؟ هل أنت من جماعة الدعوة؟.. عميل يعني..

وركله على بطنه؛ فأسقطه على الأرض وهو يتلوى من الألم.

خلال جولات التعذيب؛ وبهدف حمله على التصريح عن طبيعة تاثره بأخويه عادل وصلاح، ودوافع عدم التحاقه بالجيش؛ أخبروه أنه سيعدم. وأخذوه إلى زنزانة الإعدامات معصوب العينين. وكل ما سمعه، صوت يهتف:

ـ أطلقوا النار..

وسمع دوي طلقات أصمت أذنيه، بعدها لم يعد يدري شيئاً.

وشعر بسيل من الماء البارد ينسكب على وجهه وينساب على عنقه وجسده، ففتح عينيه، ورأى وجه الضابط الذي تبسم بخبث وقال:

ـ إسمع يا سافل.. كانَ الإعدام هذه المرة وهمياً.. ولكنه في المرة القادمة سيكون حقيقيا..

وبعد عذاب مريع دام أكثر من شهرين؛ أرسل الضابط في طلبه، فظن أحمد أنها نهايته..

قال الضابط المحقق، وقد لمعت على كتفيه نجوم وأوسمة تحت أنوار الغرفة الخافتة:

ـ أنت ياعفن يا جبان؛ لقد كنا على وشك إعدامك مع المئات من الخونة العملاء، ولكن للأسف ومن حسن حظكم أن القيادة العامة للقوات المسلحة أصدرت عفواً رسمياً عن الهاربين من الجبهة ومن التشكيلات العسكرية.. مع إنكم تستحقون أن نمسحكم من على وجه الأرض ياجبناء يا أبناء الداعرات.

أجابه أحمد بصوت منهك:

ـ شكراً للقيادة..

فنهره الضابط بالهراوة التي بيده، وقال:

ـ قل شكراً للسيد الرئيس القائد صدام..ادع له بطول العمر.. فلولا رأفته وحلمه عليكم لذبحناكم أنتم وعوائلكم وأطفالكم.. ياخونة ياجماعة إيران ياكلاب الشوارع.

فردد أحمد، وفي قلبه ما فيه من الحرقة والألم:

ـ شكراً.. شكراً للسيد الرئيس.. أطال الله عمره..

وعاد الضابط إلى القول:

ـ ستلتحقون بالجبهة فورا.. ياجبناء.

وبصق في وجه أحمد وهو يشتمه:

ـ لعنة الله على هذه الشوارب..يا ابن (...)

# في جبهة الحرب

١٧

استدعي أحمد من زنزانته، حيث كان يغط في نوم عميق:

ـ أحمد عبد الرزاق.. قم.. يريدك السيد الرائد.

عبر ممشى طويل إلى غرفة خافتة الأنوار، لا نوافذ لها، حيث توسطها مكتب عريض، تكدست فوقه أوراق مختلفة الألوان والأحجام، وقد جلس إليه الرائد في بزته(الخاكي)، وعلى كتفيه لاحت النجوم التي تشير إلى رتبته العسكرية. أدى المراسل التحية بجللَ:

ـ سيدي.. أحمد عبد الرزاق..

رفع الضابط وجهه العريض الملامح عن أوراق كان يتفحصها، ونظر إليه بتمعن؛ بعينين بالغ في فتحهما، من خلف نظارته الدقيقة العدستين، وقد غطى شارباه حيزاً من خديه. فتنحنح، وبادر بالقول:

ـ وقع على هذه الأوراق يا عميل يا خائن..

نظر أحمد في ما ناوله الضابط من الأوراق، وراح يوقع عليها، وهو يقرأ سريعاً بصوت شبه مسموع، وقد كدسها على طرف المكتب:

«أنا الموقع أدناه... أتعهد بعدم الهروب من الجيش، والمشاركة في معركة القادسية الثانية...».

وسلمه الأوراق، فعاد الضابط إلى القول:

ـ الانطلاق فجر اليوم.. انصرف.. جبناء.. متعفنون.

ـ هل تأذن لي سيدي أن اتصل بأهلي، لأخبرهم عن مصيري، وأودعهم؟..

صرخ به الضابط:

ـ لا أهل لك.. يا ابن الحرام.. إنصرف يا سافل..

لم يدر أحمد كيف غفا خلال تلك الليلة، وقد تمنى أن يرى أهله في الحلم ليودعهم. وعند سحر ذلك الفجر، فتح الباب، ودوى صوت غليظ في الغرفة، أيقظه منتفضاً من عمق سباته:

ـ إنهض.. إنزل إلى الباحة الأرضية.. أمامك تسع دقائق فقط.. هيا بسرعة.

في الباحة الواسعة، شاهد أحمد العشرات مثله؛ وجوه

شاحبة، وأجساد منهكة، وعيون حائرة.. وقفوا يتبادلون مختصر العبارات.. وتضيع جلبتهم في أرجاء المكان..

بادره أحدهم بالقول:

ـ هل أنت أُرغمت مثلي؟.. على التطوع؟

اشتم أحمد في سؤاله شركاً مخابراتياً، فقال ببرود:

ـ لا.. منذ متى يرغم الإنسان على تأدية واجبه الوطني؟..

بعد دقائق، قطع الجلبة السائدة صوت الضابط المسؤول، فهدر هاتفاً:

ـ إلى الحافلات فوراً..

سار الرتل لساعات طويلة.. خلالها كانت المناظر تتوالى بسرعة وتتبدل:

سهول فسيحة خضراء تارة.. ومساحات لا حدود لها قاحلة طوراً.. ومرتفعات شاهقة أحياناً.. وجسر حديدي عريض فوق نهر يصطخب مزبداً بين المسالك الصخرية.. وأسراب طيور سوداء عابرة.. تحت أشعة شمس حارقة وهاجة النور.. حتى وصل الركب أخيراً.

اتجهوا بأحمد، ومعه زمرة من رواد الرحلة، إلى معسكر يقع ضمن الخطوط الخلفية لجبهة الحرب. وفيه

انتشرت العشرات من الخيم والأبنية الجاهزة والخنادق والسواتر..

كانت المهمات في البداية بسيطة، لا تتعدى التدريب الميداني وحفر الخنادق وتعبئة الأسلحة ونوبات الحراسة المنتظمة.

كانت تسمع على الدوام أصوات الانفجارات البعيدة، وتشق سكون الليل أحياناً رشقات الرصاص، وأحياناً كانت تحلّق طائرات حربية فوق المكان، وتطلق نحوها طلقات المدفعية.

تمكن بعد أيام من وجوده في المعسكر؛ من تهريب رسالة مهمة جداً إلى أهله، بيد عباس أحد زملائه القدامى في المدرسة، والذي صادفه يوم وصوله، حيث ما إن تقابل وجهاهما، حتى هتفا معاً في ذات اللحظة:

ـ من؟.. عباس؟..

ـ من؟.. أحمد؟..

فتعانقا، ولم يعودا يفترقان أبداً.

## ١٨

ذات ليلة من ليالي تموز الحارة، فيما كان أفراد عائلة

السيد عبد الرزاق مجتمعين حول مائدة العشاء، تدور عيونهم بنظراتها الحائرة على الصحون أكثر مما تمتد أياديهم، وقد ساد الحزن وجوههم جميعاً، وخيم السكون على أرجاء البيت.. حتى علي كان يجلس مستكيناً متجهم الوجه..

وكانت شموع نظام التعتيم تهتز لهائبها تحت لفحات الأنسام الحارة المتسللة من الشبابيك، وكأنها تتهامس متسامرة في سكون الليل..

فجأة طرق الباب بنقرات خفيفة ومتتالية، فانقلب الوجوم السائد قلقاً واضطراباً، ونظر كل إلى الآخر، وجمدت الأيدي، وتسمرت اللقم في الحلوق.. كما هو الحال مع كل طرقة باب..

هم ياسر بفتح الباب، فيما كانت أم عادل تصرخ زاعقة عليه:

ـ لا.. لا.. عد.. أنا أفتح.. استر يا الله..

وإذا بشاب غريب، في عقده الرابع، لم تبد ملامح وجهه واضحة على ضوء الشموع الشاحب..

قال الشاب بلباقة جلية:

ـ السلام عليكم.. أهنا بيت السيد عبد الرزاق؟..

أجابه ياسر:

ـ وعليكم السلام.. نعم هنا.. تفضل..

فعاد الشاب إلى القول:

ـ أحمل إليه رسالة من أحمد، إنه في الجبهة.. أحمد بخير.. ولا وقت لدي لأتشرف بمعرفتكم، وأعطيكم تفاصيل عنه؛ فأنا على عجلة من أمري.. وداعاً.

ثم سلم الرسالة إلى ياسر وانصرف.

حمل ياسر الرسالة، وجرى نحو العائلة مهللاً.

ـ رسالة.. رسالة من أحمد..

وبلمح البرق، استلتها شيماء بخفة وشوق، وراحت تفض غلافها الصغير، وهو ورقة من جريدة؛ مثلما ينبش طفل جائع كيساً أُقفل على قطعة من الحلوى، وأخذت تجد في قراءتها فوراً، وأفراد العائلة متحلقون من حولها، وسط فرحة غامرة، لم يعهدوا مثلها منذ أمد بعيد:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

والدي الكريم، والدتي الحنون..أحبائي جميعاً

تحياتي، وسلامي، وأشواقي. أكتب لكم على عجل.. داعياً الله أن تكونوا في صحة تامة، وأمان.

أنا بخير ولله الحمد. ولا تقلقوا علي أبداً، لقد أخرجوني من السجن، وساقوني إلى الجبهة مباشرة.

في نفسي وصايا كثيرة لكم، إلا أنني أعزف عن ذلك لضيق الوقت والمجال.

أبعث سلامي إلى أُمي وأبي وشيماء وياسر، وقبلاتي إلى حبيبي علي وأمه الحبيبة؛ ولتحرص على نفسها وصحتها، وأتمنى لها ولادة يسيرة، وأرجو أن تسمي المولود محمد باقر، إذا كان ذكراً، وهدى، إذا كانت أنثى..

استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.. وإلى لقاء قريب بإذنه.. ولدكم أبو علي ـ جبهة الكرخة».

وبقيت الأم تنظر إلى ابنتها، وهي تنتظر المزيد، فسألتها بتعجب:

ـ هذا فقط؟!.. ألا يوجد كلام آخر؟

ـ نعم يا أُمي.. هذا كل ما في الرسالة.

قالت شيماء وهي تبتسم ابتسامة لا طعم لها ولا لون.

فعادت أم عادل إلى الكلام:

ـ و.. ماذا يعني كلامه؟!

ـ ماذا يعني؟!.. يعني أنهم أجبروه على الإلتحاق، أما هو فقد ذهب إلى الجبهة بنية الهرب إلى إيران.

هذا ما أجاب به أبو عادل، وكأن صبره قد نفد جراء هذا الحدث الجديد.

أما أم عادل، فإنها أخذت تدعو الله بقلب ملؤه الحرقة والألم، فرفعت كفيها، وهي تنظر نحو السماء، وتمتمت:

ـ يا الله.. إحفظ لي ولدي أحمد.. وارعه فلا يصاب بسوء.. وأعده يا الله سالماً معافى.. ولا تفجعني به.. أرجوك بحق من تحب..

## ١٩

في الخطوط الأمامية لجبهات القتال، قضى أحمد مدة بانتظار الفرصة المؤاتية للهروب، مع عباس.. صديقه القديم؛ حيث شاء الله أن يكونا معاً في سرية واحدة، وخلف ساتر واحد، يحرسان، ويتسامران تحت نجوم السماء المتلألئة، ويسبحان سوياً في بحر الظلمات الحالكة، حتى سحر الفجر.

مرة همس أحمد في سكينة الليل:

ـ يا لها من صدفة غريبة.. لا تكاد تصدق.. قديماً كنا في

المدرسة نجلس على مقعد واحد.. والآن بعد سنين طويلة.. ها نحن معاً خلف ساتر واحد..

فأجاب عباس مداعباً:

ـ ذلك من سوء حظك.. أليس هذا ما تقصده؟..

وذهبا في الضحك، فنسيا ما يدور حولهما.

كان عباس رجلاً ذا دعابة، ووجه مشرق بالبسمة دوماً، وله قصص طويلة وطريفة مع الهروب.. كان يرويها لأحمد وهو مستغرق في الضحك..

مرة، فيما كانا خلف الساتر، وقد أجهدهما ما اعترضهما من المشقات، خلال تسلقهما ذلك التل الهائل، واجتيازهما نواتىء تلك الصخور المنتشرة على منحدره، خلال تأديتهما واجباً عسكرياً؛ انتفضَ أحمد حنقاً، وقال:

ـ لا أرى بارقة أمل لنا بالفرار من هنا.. إذا كان هذا التل البسيط.. كاد أن يهلكنا.

فاعترض عباس، وهتف:

ـ تفاءل بالخير يا رجل.. قريباً تجد نفسك هناك.. برغم أن الرحلة شاقة للوصول إلى القطعات الإيرانية؛ فنحن في عمق الأراضي العراقية، والقوات الإيرانية تبعد عدة كيلو مترات..

فعاد أحمد إلى الكلام باستخفاف ظاهر:

ـ ومن تكون؟.. حتى أثق بقدرتك الخارقة؟.. لقد كدت تهوي على المنحدر الصخري.. لو لم أتداركك.. ومن أين حصلت على الخبرة في الهرب؟..

تنفس عباس عميقاً، ومضى في القول:

ـ إسمع ياحبيبي: حكيت لك قصص هروبي.. فررت ثلاث مرات..هذه المرة سأنجح إن شاء الله. فما رأيك؟..

قال له أحمد وهو يتصنع الجدية:

ـ أستغرب لماذا لم يعدموك ويخلصوني منك!

فتابع عباس الكلام:

ـ حصل يا صديقي. في هروبي الثالث؛ ألقي القبض علي، وقررت المحكمة العسكرية الميدانية إعدامي رمياً بالرصاص أمام الجنود..

فقاطعه أحمد مداعباً:

ـ الحمد لله.. أعدموك إذن؟..

وبعدما ضحكا طويلاً، عاد عباس يتابع القول:

ـ إلا أن العفو الخاص الذي شملني به آمر اللواء، بعد أن تظاهرت بأني مصاب باضطراب عصبي شديد، قد

أنقذني من موت محتم.. أتعرف! لقد أُسر آمر اللواء بعد الحادث بأقل من شهر!؟

فقال أحمد مداعباً:

ـ هذا مما لا شك فيه أنك مصاب باضطراب عصبي! المهم.. في أي حال كنت.. لو أني لم ألتق بك هنا؟.. كنت سأموت.. إما في الحرب.. وإما غماً..

فعاود عباس القول، وهو يقهقه؛ محاولاً أن يرفع من معنويات أحمد:

ـ طب نفساً بالموت العاجل يا صديقي ما دمت معي.. وتمسك بالصبر.. واخرج من حالة الحزن التي خيمت عليك.. وتغلغلت في أعماق نفسك..

فعقب أحمد وهو يصطنع الدعابة هذه المرة؛ والألم يتجلَّى في نبرات صوته:

ـ شكراً لك يا صاحبي.. لطالما أنا برفقتك فسيكون حظي في أسفل المنحدر.. لكنني بعيداً عن المزاح لم أعدْ أجد في حياتي غير هموم ومآسي..

وأخذ عباس يتذكر أيام الدراسة التي جمعتهما.

ـ دعك من مآسي الأيام الحاضرة.. هل تذكر أيام الدراسة؟

انشرح صدر أحمد، وخفق قلبه فرحاً، وأجاب:

ـ نعم.. وكيف أنساها.. كيف أنسى دعاباتك الحلوة والمرة في آن معاً.. التي كنت لا تكف عنها.. حيناً مع الزملاء.. وأحياناً مع المعلمين..أذكر مرة كيف أوهمت زملاءك بمرض المدرس.. مدرس الرياضيات وبأنه سيغيب غداً.. فحضرنا كلنا في اليوم التالي بلا كتاب ودفتر الرياضات.. إلاَّ أنت.. وضحكنا مع المعلم الذي هتف بك: «محتال كبير».. وأحالك على المدير؛ الذي لم يرض بعودتك إلى المدرسة الا بعد حضور أبيك.

وقال عباس باسماً:

ـ هل تذكر فريق كرة القدم الذي كنا نلعب فيه معاً.. كنت أنت حارس المرمى.. وأنا المدافع الأيمن.. وكيف كنت أضع الكرة في مرماك؟!

وتدخل أحمد مقاطعا وهو يضحك:

ـ عليك اللعنة يا عباس.. كنا نخسر بسببك كل مرة.. آه.. يا لها من أيام حلوة.. هل تذكر السفرات الجماعية؟..

فقال عباس:

ـ طبعاً.. كيف أنسى؟!..

فعاد أحمد إلى القول:

ـ أجمل طرائفك كانت.. حين تظاهرت بانك على وشك الغرق.. وكيف غطس مدرس التاريخ وهو في ثيابه خلفك.. فسبحت هارباً منه.. وأنت تسبح على قفاك غارقاً في الضحك والمدرس يشتمك.. كان ذلك في «بحيرة الرزازة».. هل تتذكر؟!

كان أحمد يبتسم تارة، ويتأوه تارة اخرى متأرجحاً بين الأسى والفرح.

٢٠

بقي عباس وأحمد يخططان للهرب طوال تلك الفترة. حتى حان الوقت الموعود..

فذات ليلة عاتمة، ساخنة بهوائها، همسَ عباس في أذن أحمد بإلحاح شديد:

ـ أحمد.. حانَت لحظة الفرار.. إحمل بندقيتك.. واتبعني..

مسح أحمد عينيه من دبيب النعاس وقال بهدوء:

ـ أمتأكد أنت؟.. تريث قليلاً.. لنراقب المكان..

فأعاد عباس القول:

ـ لقد أتممت المراقبة.. لا يوجد عائق.. لا تنس الماء.. والطعام.. الطريق طويلة.. وشاقة

وعقب أحمد بالقول:

ـ سأتبعك.. لا تنس الخطة.. ندور حول المرتفعات الصخرية.. وننفذ من الجهة الجنوبية.. باتجاه عبادان.

ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع القول:

ـ عباس.. إحذر الأنوار الكاشفة.. فيها هلاكنا..

ضحك عباس كما جرت العادة، وقال:

ـ أحمد.. لا تخف.. لا خطر البتة.. أنوار كاشفة.. وحقول ألغام.. فقط.. وتعرضنا لإطلاق الرصاص من قبل الحرس.. لا تخف.. وضعنا سليم يا رجل!..

قال أحمد بلهجة جادة:

ـ ما أغرب أمرك يا عباس.. هذا ليس وقتاً للمزاح.. خذ الأمر على منحى من الجد.. وإلا هلكنا..

فضحك عباس وهو يكتم صوته ومن غير أن يجيب، ثم انطلقا ساعيين إلى خارج الموقع.

سارا متجاورين، بخفة وحذر شديدين.

همس عباس:

ـ أحمد.. كيف ترغب أن تموت؟! أتختار الأنوار الكاشفة؟.. أم الألغام المدمرة.. أم رصاص رفاقنا الكرام؟!

أجاب أحمد ببرود:

ـ أرجوك يا عباس.. أختار الأنوار.. هل هذا يريحك!؟.. هيا لحث الخطى بسرعة.

إلا أن مسؤول الرصد رآهما، عندما كان يراقب بناظوره تحرك الجبهة المقابلة، على الرغم من أنهما حاولا تحاشي ذلك.

حين رأى الراصد اثنين من جنود الوحدة، يهربان.. جمد في مكانه، ولم يتمالك أعصابه، فهتف:

ـ ها؟!..

بادره رفيقه:

ـ ماذا هناك؟.. هل رأيت شيئاً؟..

فعاد إلى نفسه، وبلع ريقه بصعوبة، مجيباً:

ـ ها.. لا.. لا شيء.. لقد سرحت بخيالي..

وتابع الراصد يخاطب نفسه في سره:

ـ ليجربا حظهما.. لعلهما ينجوان.. ويخرجان من رحى هذه الطاحونة..

لكن رفيقه قطع عليه خواطره ناهراً بالقول:

ـ احذر يا هذا.. لا تسرحْ بخيالك مرة أُخرى.. إن عملك غاية في الحساسية.

وبعد اجتياز مرمى الناظور، وشوش عباس أحمد قائلاً:

ـ لقد رآنا.. كنا لثوانٍ تحت الأنوار.. هذا غريب.. لم ينادنا.. ولم يطلق النار علينا.. أبله..

ومضى يضحك، فنهره أحمد وهو يتمتم:

ـ أتقول هذا بدلاً من أن تشكره.. نحن مدينان له بمصيرنا.. بحياتنا.. لعله يكره الحرب مثلنا.. وطالما فكر بالفرار!..

ضحك عباس في سره، وقال معلقاً:

ـ ما رأيك أن نرجع إليه؟.. وننادیه من تحت الأنوار؟.. لعله يهرب معنا؟..

فقاطعه أحمد بخشونة قائلاً:

ـ أف.. سوف نهلك إن بقيت هكذا..

وعاود عباس القول بجدية:

ـ أحمد.. نحن الآن في وسط شبكة الألغام المزروعة.. في المنطقة الحرام.. ولا أحد يدري منا.. متى يطير..

## ٢١

في الطريق إلى القوات الإيرانية، قضى أحمد وعباس تلك الليلة في السير بمغامرة كبيرة، حيث لم يكونا على علم بخرائط شبكات الألغام.

أكثر من مرة كان عباس يودع أحمداً قائلاً:

ـ وداعاً يا صديقي.. لعلني أرحل عنك في هذه الخطوة أو التي بعدها.. ولعلك ترحل أنت عني.. من يدري.. قل لي وداعاً..

وفيما هما يتابعان السير على هذه الحال، هتف عباس فجأة قائلاً:

ـ أحمد.. بشرى «سارة».. لقد ضللنا الطريق.. إننا نسير شمالاً كما يبدو.. ولا نتجه صوب الإيرانيين..

فقاطعه أحمد، بعد أن أخذ نفساً عميقاً:

ـ لم إذن أكدت لي.. أنك تعرف الأرض شبراً شبراً؟..

أجاب عباس مرتبكاً:

ـ تفاءل بالخير.. أرجوك.. سنصل.. إن شاء الله..

هكذا واصلا السير، وكانا يفترشان الأرض بين الحين والحين، فيستريحان قليلاً، ويشربان، أو يأكلان شيئاً.

كان أحمد يقول:

ـ لنبق متباعدين.. فينجو أحدنا..

فيجيبه عباس بإصرار ومرح:

ـ لا.. سأبقى بقربك.. إذا انفجر لغم.. أرافقك إلى العالم الآخر.. أحمد.. ما رأيك بمرافقتي؟..

ويتضاحكان بألم، ثم يتابعان السير.

حتى شق الفجر، فإذا هما في صحراء قاحلة جرداء، ليس فيها سوى الرمال، وتلال من الأتربة الجافة والأشواك، وكتل الصخور.. ومعها أصوات من بعيد للقنابل والصواريخ. وأحياناً الطائرات المقاتلة والحوامة.

تمتم أحمد مبدياً استياءه:

ـ صحراء كالمحيط لا حدود لها.. لعلنا سنبقى نتخبط على غير هدى، ودون جدوى..

كان ذلك اليوم شديد الحر، توسطت خلاله الشمس لاهبة لاذعة، وزاد الطين بلة، نفاد ما كانا حملاه من ماء وطعام..

وإذ قال أحمد:

ـ لقد نفد مائي وطعامي.. ولعلها تنفد لحظات عمري..

فقاطعه عباس باسماً:

ـ هذه آخر شربة معي.. إشربها.. وتلك آخر كسرة خبز.. خذها.. لا.. العدل سيد الأحكام.. نقتسم ما لدي.. مناصفة..

أجابه أحمد مبتسماً:

ـ لا.. إشرب ماءك.. وكل كسرة خبزك.. جسمك نحيل.. لا يحتمل مثلي.. أنا خائف عليك..

وبقيا على هذه الحال، حتى جن اللَّيل الذي كان يخرق ظلامه وسكونه وميض القصف المتبادل، حيث هتف عباس:

ـ أحمد.. لنتوقف.. لم العجلة؟..

فسهرا على بريق النجوم، حتى أخذهما السبات، وغرقا في خضم الظلمات، حتى فجر اليوم التالي.

ثم واصلا سيرهما حتى أنهكما التعب، والعطش، واشتعل فيهما أوار الحر.. فالشمس لم تكن لتفارقهما للحظة.

هتف عباس:

ـ أحمد.. لم أعد قادراً على مواصلة السير.. لقد خارت قواي..

صدقت حين قلت.. إن بنيتي ضعيفة..

حمل أحمد البندقية عن عباس، وتأبطه من ساعده، وهو يحاول أن يبث فيه النشاط، فقال:

ـ تسلح بروح العزيمة والإرادة.. لا تستسلم للضعف.. أنت قوي.. وجريء.. هيا يا بطل..

ولم يكن أحمد نفسه في وضع يحسد عليه.

أحس عباس بالإعياء الشديد، فتوقف، وهتف:

ـ أحمد.. اتركني هنا لمصيري.. واذهب لوحدك إلى إيران..

لم أعد قادراً على الحراك..

اعترضه أحمد بصوت مفعم بالحنان:

ـ لا.. لا أتركك.. بل نمضي معاً..

وحمله على ظهره، فسار به مسافة قليلة، حتى وصلا إلى تل صخري قاتم اللون، فاحتميا بظله من الشمس الحارقة.

غط عباس في غيبوبة، حيث أغمض عينيه، وصمت، وكانت قسمات وجهه تتوهج بحمرة غريبة، وكان يرتعد، كالغصن اليابس في مهب الريح.. يكاد ينكسر.

ارتمى أحمد إليه، يمسح وجهه وشعره بيديه، ويهزه من

كتفيه برفق، ويناديه، وبدأت دموعه تسيل على خديه، وهو يقول:

ـ يا الله.. ماذا أفعل له!.. إنه ينزلق من بين يدي..

فجأة، فتح عباس عينيه، وتمتم:

ـ أحمد.. قلت لك اتركني أموت هنا.. واذهب لوحدك.. انج بنفسك.. دعني.. قد بدأ مصيري..

وأغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما ليقول وهو يبتسم بصعوبة:

ـ هل تذكر مرة حين كنا في المدرسة المتوسطة؛ وقد أدخلت معي إلى الصف ضفدعا، وكان عندنا امتحان في درس الجغرافيا، وأفلت الضفدع، وتحول الصف إلى ضحك وصراخ وزعيق من الطلبة. أتذكر أنك كنت الوحيد الذي يعرف من أدخل الضفدع إلى الصف. وحين قرر المدرس أن يعطي جميع الطلبة صفرا إذا لم يعترف الطالب الذي أدخل الضفدع إلى الصف. فقمت أنت وحملت القضية عني وقلت بشجاعة وخجل أنك انت صاحب الضفدع؟

ابتسم أحمد بمرارة وهو يقبل عباس:

ـ أجل أتذكر ياصاحب الضفدع.

ـ أرجوك اتركني هنا يا أحمد.. إذهب أنت ودعني أموت هنا.. دعني أموت مرتاحاً.. لقد أديت الأمانة.. وأشعر الآن بارتياح شديد.. اذهب يا أخي.. اذهب..

فوضع أحمد كفيه بكفي عباس، قائلاً له:

ـ بالله عليك يا عباس، لا تقل هذا.. إنك تقطع نياط قلبي..

وعاد صوت عباس ليقول:

ـ اسمع ما أقول لك يا أبا علي.. أنا راحل لا محالة، إنني أرى الموت بعيني..

وبعد برهة، استأنف عباس الحديث:

ـ حاول أن توصل نفسك.. حاول يا أحمد.. و.. أنا لي طلب صغير إليك..

فغص أحمد، وقال:

ـ سأنفذ كل طلباتك يا عباس.. يا حبيبي.. قل..

تمتم عباس، وقد خنقته الغصة:

ـ إذا وصلت إلى إيران؛ فاذهب إلى مرقد الإمام الرضا..

وقطع حديثه، مختنقاً بعبرته، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ثم استأنف الكلام، بأنفاس متقطعة:

ـ اذهب إلى الإمام الرضا.. وادع لي.. وقل له إن عباس لم يحارب.

وبعد لحظات، عاد للقول:

ـ قل له أيضاً إن أم عباس.. أم عباس.. تدعو في كل صلاة.. تدعو ان تنتهي الحرب..

فقال أحمد، وقد اشتد بكاؤه:

ـ كفى يا عباس.. أرجوك.. إنك تقتلني بكلامك هذا..

ستصل إليه.. وتقول له هذا الكلام بنفسك.. إن شاء الله..

وعاد عباس إلى القول:

ـ آه يا أخي.. لقد انتهى كل شي.. أنا أدرى بنفسي.. أرجوك.. لا تنس وصيتي..

وهتف أحمد بأسى شديد:

ـ سمعاً وطاعة يا عزيزي.. وصيتك أمانة في عنقي.. لكنك ستكون معي حياً.. بدون شك.. تشجع.. أرجوك..

وصمت عباس أكثر من دقيقة، وأغمض عينيه وكأنه يريد أن يودع هذه الحياة، ويرحل عنها في صمت، إلاَّ أنه عاد متمتماً:

ـ لا تنس أن تبلغ سلامي للعراقيين هناك، وتقول لهم:

دم الشهيد الصدر يفور.. ويفور. هيا يا أحمد، استحلفك بالله ألاَ تتأخر..

لفظ عباس الشهادتين بصعوبة بالغة، ثم صمت إلى الأبد..

ألقى أحمد بنفسه على جثمانه المسجى، وهو يبكي، ويقول هاتفاً:

ـ عباس.. عباس.. أرجوك يا عباس.. لقد تعاهدنا أن نصل معاً.. هل نسيت العهد؟..

كلمني يا أخي.. يا صديقي.. عباس آه.

إلا أن عباس لم يعد يتكلم.. لقد مات.. مات في الصحراء، حيث لا أهل، ولا أصحاب، مات وحيداً..

ودوى صوت أحمد يشق الفلوات نادباً راثياً صديقه:

ـ إلى أين يا صديقي؟.. عباس.. من غيرك ينتزع البسمة من قلبي المفجوع.. كنت تحول أحزاني فرحاً.. كنت بلسماً لجروحي.. وداعاً يا حبيب قلبي.. لن أنساك أبداً.. وداعاً.. يا عباس..

وراح يحدق في ذلك الوجه الذي امتزجت فيه الصفرة بالسواد والحمرة الباهتة، ثم ملس على شعره الأسود المعفر بالتربة بيده المرتجفة وأغمض له عينيه المفتوحتين على آفاق

العدم، وشد على حنكي فمه برباط افترعه من قميصه، وهو يوشوشه:

ـ هذه ذكرى مني.. خذها معك.. في رحلتك الأبدية.. لقد مت وحيدا.. ولكن نفسك مطمئنة..

وأخذ يمسح أنحاء وجهه بكفيه المرتجفتين، وأسبل له ذراعيه، وساقيه، وهو ينفض ثيابه برفق، ومضى يقبله طويلاً على جبينه البارد، وعلى خديه الآخذين في الجفاف، ثم ضمه بساعديه إلى صدره وعنقه، وهو يختنق من البكاء..

بعد ذلك قام بالصلاة عليه، وهو قابع إلى جواره، لا يقوى على الوقوف. ثم حفر له لحداً، بأظافر يديه وحربة بندقيته، غير آبه بما أصاب رؤوس أصابعه، ووضعه في اللحد بتأن، وهال عليه ناعم التراب، رويداً، رويداً، حتى غاب وجهه ـ وجه عباس ـ عن عينيه، وخط على التراب بإصبعه الدامية:

«هذا قبر ابن العراق.. الشهيد المظلوم.. المرحوم عباس.. الفاتحة..».

ومسح بندقيته من ذرات التراب، وألقاها بجوار القبر، وحمل بندقية عباس، وهو يقول:

ـ عباس.. سأذكرك دائماً.. هل ستذكرني.. يا أخي؟!..

قبل التراب، باكياً، ثم هام في القفار على وجهه.

## ٢٢

واصل أحمد سيره بصعوبة شديدة جداً، فكان يقف على قدميه تارة، ويقع أُخرى، وتارة يزحف على ركبتيه.. كالح الوجه.. حافي القدمين، رث الثياب، متقطع الأنفاس..

وحين كانت الشمس على وشك المغيب.. وقد أخذت حمرتها.. تمتزج مع سواد الشفق الآتي بليل جديد.. وبدأت النسمات تبرد.. وتوشوش في الآذان.. وشوشات غامضة المعاني..

فجأة، طرقت سمعه أصوات وهمهمات لا يكاد يميزها..

هي مزيج من الأصوات البشرية، وصخب لآليات ومحركات كانت تدندن في ذلك السكون، وتضيع أصداؤها في الآفاق متجاوبة..

وقال في خاطره متمتماً:

ـ لا.. ليست حسيس جن.. ولا عزيف عفاريت.. ولا دمدمات أشباح.. لا بد أن يكون أحد من البشر هنا.. خلف هذا التل المرتفع..

بعد حين من الوقوف بين حيرة وتردد، استجمع قواه، واندفع عبر صخور سوداء ورمادية، بدأت ألوانها تختلط بفعل الغسق الذي كان في طريقه إلى محو معالم الأشياء التي كانت ماثلة نهاراً.

كادت تنزلق به قدماه، فيوشك أن يسقط إلى الحضيض الشائك، لولا أنه تشبث بكلتا يديه، حيثما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكثيراً ما كانت النتوء تتخلع تحت أنامله، فيضرب بكفيه كيفما كان، غير آبه بما كان يصيبه من كدمات ورضوض وخدوش في أنحاء جسده، وأحياناً في أنحاء وجهه، وكانَ يردد بصوت مسموع، بحت نبراته:

ـ ليصبني ما يصيبني.. فذلك أهون علي من الشقاء الذي أنا فيه.. لم أعد أحتمل..

وبعد جهد جهيد تمكن من بلوغ ذروة ذلك المرتفع، فيما كانت بعض النواتىء الصخرية تتدافع هاربة من تحت قدميه، وأحياناً من بين أصابعه ومن تحت كفيه، في حين لم يكن بإمكانه تمييز ما كان حوله من المعالم بسبب الظلام الذي أوشك أن يخيم على الدنيا، عدا عن وميض القنابل والصواريخ التي تتساقط على الجانبين..

تسمر بمحاذاة كتلة صخرية تخللتها الثقوب والتجاعيد،

وسط فسحة صغيرة تداعب النسمات العابرة أشواكها، فتطلق أصواتاً هامسة بخشخشة عيدانها وإبرها..

دعك عينيه مراراً بيديه، ليمسحهما من الدموع والأقذاء، وهو يسعى إلى تفسير حقيقة المكان الذي هو فيه، لعله يعرف أين انتهى به طوافه وخبطه، وإلى أين انساقت به قدماه..

أخيراً رأت عيناه ما رأتاه، فلم يصدقهما، بل انتفض مأخوذاً بروعة المشاهدة، وهتف مدهوشاً، وقد عقدت لسانه المفاجأة، وأثلجت قلبه:

ـ يا إلهي.. أحقيقة ما أراه؟.. أم خيالات رؤى؟.. يا إلهي.. إن كنت في حلم فلا توقظني.. أرجوك.. وإن كنت في يقظة فيا فرحتي.. إنه علم يرفرف على قمة المرتفع المقابل!.. وقد كتب عليه «الله أكبر.. قادمون ياعراق»

اختلط ضحكه ببكائه؛ فأخذ يلوح بيديه باتجاه القوات المستنفرة هناك، حتى سقط مغشياً عليه.

في تلك اللحظات شاهده الراصد بالناظور، فأخبر آمر الوحدة:

ـ سيدي.. على القمة المقابلة متسلل.. يبدو أنه قادم من الجهة المعادية.. هو أعزل من السلاح.. رأيته يترنح

كالسكران الثمل.. لوح بكفيه.. وسار خطوتين اثنتين.. وهوى إلى الأرض.. بلا حراك..

ذهب على الفور ثلاثة مقاتلين بأمر من آمر الوحدة. جاؤوا بأحمد، وكان في الرمق الأخير، أصفر الوجه، مغمض العينين، بقلب لا يكاد يخفق، وقد تقطعت أنفاسه، وتراخت كل أوصاله، ودماؤه تسيل من فمه وأنفه، ومن خدوش وجهه.

وبعد أن أسعفوه، ومسحوا الدم والتراب عن وجهه، وبلوا شفتيه بالماء، وأطعموه شيئاً من الحساء والفاكهة المعلبة، استعاد وعيه شيئاً فشيئاً. فتح عينيه محدقاً وسأل بدهشة:

ـ أيها الطيبون.. أين أنا؟.. أرجوكم.. أين عباس؟!.. لا.. عباس مات.. ودفنته بيدي.. آه.. كأني فاقد لذاكرتي..

تقدم منه باحترام آمر الوحدة وخاطبه قائلاً:

ـ اطمئن على سلامتك.. من أنت؟.. من عباس؟.. من أي قاطع اتيت؟.

أجاب أحمد على كل الأسئلة، فيما كان أحد المقاتلين يسجل أقواله، ولما انتهى من الإجابة، وقع على إفادته.

وصمت برهة، ثم عاد يتساءل، وقد أخذته الدهشة والفرحة:

ـ ولكن.. ولكن بالله عليكم من أنتم؟! وأين أنا؟!

أنتم تتكلمون بلغتنا ولهجتنا! كيف تهنئونني بالسلامة وتعاملونني بهذا الشكل وأنتم من القوات العراقية.. التي فررت منها!؟.

ـ نعم يا أخي، نحن قوات عراقية، ولكننا.. نرابط هنا لقتال الطاغية الذي استباح كرامة وطننا الحبيب، وأهلك حرثه ونسله. نحن نقاتل لاسترجاع حق شعبنا في الحياة والحرية، والثأر لدماء الأبرياء، ونصرة العيون التي أذبلتها الدموع في عراقنا المستباح.

فهتف أحمد والاعتزاز يملأ قلبه، ويفيض على سمات وجهه:

ـ يا إلهي! ماذا أسمع؟!.. أية مشيئة هذه؟!.. هل أنتم المجاهدون العراقيون حقاً؟!

وتقدم منه كل من في الموقع واحداً تلو الآخر، يعانقه بشوق وحنان، ويقبله مهنئاً بسلامته وهم يرحبون به بينهم، ويسألونه عن الوطن، وهو عاجز أيما عجز عن وصف غبطته بهم، وشعوره بالطمأنينة بينهم.

ثم خاطبه آمر المجاهدين بصوت هادىء:

ـ لا تزعج نفسك الآن، عليك بالراحة التامة.

ثم أشار على أحد العناصر قائلاً:

ـ جهز سيارة لنقل أحمد إلى الخطوط الخلفية بأسرع وقت.

فقال أحمد بحماس وانفعال شديدين مبدياً اعتراضه:

ـ لا يا أخي.. لا.. أريد أن أبقى معكم.. جندياً صغيراً، سوف أبقى هنا لأقاتل.. أرجوك يا سيدي.. أنت لا تستطيع أن تشعر بما أنا فيه من التأجج.. اعتبرني من الآن واحداً منكم.. إنه حلمي الذي كدت أموت في سبيله.. إنه حلمي القديم يتحقق.

فبادره الآمر بلطف وتقدير قائلاً:

ـ أولا لا تقل سيدي؛ بل أخي بارك الله فيك يا أبا..

فقال أحمد:

ـ إسمي أحمد، أبو علي..

فعاد الآمر يتابع حديثه:

ـ يا أبا علي.. أعاهدك على أن تبقى معنا.. وسوف أتابع عودتك إلينا بنفسي.. ولكن.. عليك أن تستريح قليلا أولاً..

وتجري بعض الترتيبات الرسمية العادية.. وتزور المراقد المقدسة.. وتقضي بعد ذلك فترة تدريب في المعسكر؛ لأن الأساليب القتالية هنا تختلف عما تعلمته في الداخل.

عاد أحمد إلى تكرار الاعتراض، فقال:

ـ ولكن..

فقاطعه الآمر:

ـ أيام قليلة.. وتعود إلينا، إطمئن، ستكون واحداً منا حتماً.

أخيراً ألزمه آمر الموقع بتنفيذ أوامره:

ـ إصغ إلي جيداً يا أبا علي.. عليك أن تذهب الآن إلى الخطوط الخلفية من الجبهة.. ومنها إلى مدينة الأهواز؛ حيث معسكرنا الرئيس على بعد كيلومترات..

وبعد سهرة حميمة، تنوعت أثناءها أصناف الأحاديث التي دارت حول فرار أحمد، وما لاقاه خلال مغامرته، نام قرير العين في إحدى الخيام، وكانت نسمات الليل الباردة تتسلل إلى وجهه، وتنعش رئتيه، وكان يسامر نفسه قبل أن يدركه سبات المنام:

ـ لقد ولدت من جديد.. كأنني لم أزل أصغر من ولدي

علي.. لكن قلبي لم يزل هناك.. حيث الجميع بانتظاري.. في وطن الدموع..

فجر اليوم التالي، بعيد شروق الشمس التي كانت لم تزل ترتدي وشاحها الذهبي الأصفر، أفاق أحمد على صوت يناديه:

ـ أبا علي.. هيا انهض.. سنذهب إلى حيث أوعز الاخ الآمر..

نهض ببطء، كان لم يزل متعباً، فخرج من الخيمة، بعدما أبدل بزته (الخاكية) الممزقة بأُخرى جديدة صفراء مرقطة، ما أزخر قلبه بالاعتزاز والثقة..

بعد فطور خفيف من الخبز والجبن، تخللَه كوب من الشاي قال الشاب الذي كلف بمرافقة أحمد، والابتسامة تعلو محياه:

ـ أبا علي.. هيا بنا.. اسمي أبو منذر.. لقد فررت من هناك مثلك.. وأعدموا أبي.. وأخوي معاً.. وبقيت في السلك العسكري هناك.. صامتاً.. عضضت على الجرح.. حتى تمكنت من النفاذ إلى هنا.. وإن شاء الله نعود معاً إلى أهلنا.. منتصرين..

فأجابه أحمد، وهو يجلس إلى جانبه في السيارة:

ـ أعرف يا أخي.. لكل واحد هنا مأساة.. ذاك هو قدرنا الذي رسمه لنا الطغاة. وأعرف أيضاً.. أننا هنا.. لنرسم بأيدينا.. قدراً جديداً لنا..

انطلقت بهما سيارة عسكرية صغيرة، مموهة بطين الأرض وأغصان الزيتون، لا زجاج لها، ولا إشارات ضوئية، لكن عجلاتها غليظة، عميقة التجاعيد.

كانت السيارة تتهادى حيناً، وتطوي المسافات أحياناً، وطوراً تتوقف عند حاجز عسكري، ثم تستأنف المسار عبر المسالك المعقدة في التواءاتها..وكانت المناظر على جانبيها تتبدل بين الفينة والفينة. وأشعة الشمس حارقة، والهواء جاف يلفح الوجوه بعنف وحرارة..

مر وقت طويل، كان ذلك الشاب اللبق يشرح خلاله حول ما كان يبدو لهما على تلك الطريق المتعرجة العسيرة المسالك:

ـ انظر أبا علي.. هذه أرتال من الآليات المصفحة.. ربضت على السفوح الصخرية.. وهناك المدافع المضادة للطائرات..

كان أحمد يتأمل.. وكأنه يرى بشائر النصر القريب..

دامت الحال هكذا، حتى وصلا إلى مدينة كبيرة عامرة، ولكنها كثيرة المعالم المدمرة. قال ابو منذر لأحمد:

ـ هذه مدينة الأهواز.. هي نبذة عما أحدثته هذه الحرب الضارية.. بإمكانك أن تقرأ على هذه الركامات.. ما شئت من المآسي.. ومن هنا سنتجه إلى المعسكر..

أمضى أحمد أياماً من الراحة في «معسكر الشهيد الصدر».. الذي يعج بالمجاهدين.. التحقوا به من كل حدب وصوب في العراق.. تشتتهم اللهجات والعادات، وتجمعهم الهموم والاهداف.

هناك، أمضى أحمد بضعة أيام هادئة، تخللتها صفارات إنذار عدة مرات. كما أنه أُخضع للتحقيق عن شخصيته وخلفيته. فاثار دهشة من عرفه من المسؤولين، الذي سمعوا عن نشاطاته في بغداد، وكيف استطاع الهرب والنجاة، لاسيما وانه شقيق الشهيدين الدكتورعادل وصلاح الموسوي.

بعد اكماله دورة في التدريبات الميدانية، أخذوه إلى موقع المجاهدين العراقيين في الجنوب، مع مجموعة جديدة التحقت حديثاً بالجبهة..

حمل أحمد بندقيته وانتصب شامخاً، ببزته العسكرية، وهتف:

ـ ها أنتم معي جميعاً.. سيدي الشهيد الصدر.. أخي عادل.. أخي صلاح.. صديقي عباس.. سأدافع بكم.. لا تموتون والله حتى أموت أو ننتصر على الطاغية.

## ٢٣

رابط أحمد في جبهة الجنوب عدة أشهر، كان خلالها يقوم بواجباته بكل دقة وحماس، وجرح مرتين.

ذات صباح، استدعاه القيادي المسؤول عن عمل الداخل، حيث قال له:

ـ أبا علي.. بناء على الحاجة الماسة وجدارتك العالية.. قررت القيادة الجهادية.. نقلك إلى العمل الميداني داخل العراق وقد تأمن لك كل ما يلزم.. وسيكون نطاق عملك في العاصمة بغداد..

وفيما كانَ منهمكاً، يتهيأ لمهمته الجديدة، طرق أحدهم باب غرفته قائلاً:

ـ أبا علي.. عليك التوجه إلى قلم المعسكر فوراً..

وثب مسرعاً، فبادره المسؤول بالقول:

ـ لك في بريد اليوم رسالة.. تفضل..

اندهش بشدة لتلك المفاجأة، وصعق أكثر حين قرأ اسم

المرسل على المظروف ـ أم علي ـ ففتحه بسرعة، وقرأ، وعيناه تلتهمان الكلمات التهاماً:

«زوجي العزيز أبا علي حفظك الله، سلام أحر من اللهيب، وأشواق مبللة بدموع الفراق الطويل.

أحمد الله على الاتصال بك مرة أُخرى.

لا شك في أن هذه الرسالة ستفاجئك، وتدهشك، بكل ما تحمله من معانٍ، ومضامين.

لقد تم تسفيري إلى إيران من قبل السلطات، ووصلت إلى مخيم المهجرين العراقيين خلال الأسبوع الماضي، بذلت المستحيل من أجل الحصول على عنوانك، والاتصال بك، حتى تهيأ لي ذلك من خلال أحد زملائك هنا، والذي عرفك ويروم السفر صوبكم حالاً، لذا لا أستطيع الإطالة.

أنا هنا بانتظارك على أحر من الجمر.

تجد عنواني الكامل في الرسالة، وإلى اللقاء زوجتك المفجوعة أم علي ـ مخيم جهرم».

اعترت الدهشة أحمد، وغلب عليه الاضطراب، وراح يناجي نفسه، ضارباً أخماساً بأسداس:

ـ ياسمين.. بشحمها ولحمها.. هنا!.. يا للغرابة! كيف

سُفرت؟ ولماذا؟ ومع من؟.. هي تأتي.. وأنا أعود.. كأننا لن نلتقي.. هل أفرح بمجيئها؟.. أم أحزن على فراقها من جديد؟!..

لاحظ زميله الموجود معه في الغرفة اضطرابه، وقلقه، فسأله:

ـ أبا علي.. ماذا حل بك؟.. لقد قلبت هذه الورقة مزاجك رأساً على عقب.. ما الأمر؟.. لقد شغلت بالي..

فأجابه أحمد بحزن وعصبية:

ـ الأمر فظيع.. حضرت زوجتي من العراق.. وأنا في مهمة عائد إلى بغداد.. ولا خبر عن أهلي..

فأطرق زميله هنيهة، وهتف:

ـ أبا علي.. تقدم بطلب تأجيل المهمة.. وخذ إجازة.. واذهب لمقابلة أم علي.. وتقرر بعد ذلك ما تفعله.. على ضوء ماتحمله زوجتك من أخبار إليك..

ترك أحمد كوب الشاي على المنضدة، وهب إلى إدارة المعسكر، فطلب إجازة، عللَها برسالة زوجته، فمنحه الآمر أسبوعاً، وقال له بحماس:

ـ حمداً لله على سلامة أم علي.. سأسعى إلى تجميد

المهمة التي كلفت بها.. هذا أمر مهمة.. خذْ سيارة من الموقع..

ولم يتأخر لحظة واحدة، فهيأ حقيبته الصغيرة، وانطلقَ في السيارة التي أقلته مرة إلى مدينة الأهواز. اندفعَ أحمد يقود السيارة بسرعة جنونية، فكان لا يكاد يشاهد المناظر على جانبيه، وود لو يستطيع أن يستبق السيارة.. لم يكن يرى سوى طيف ياسمين..

ـ علي، والآخرون؟!

انتفض كمن تعرض لسكبات ماء بارد فجأة على رأسه، وسأل نفسه:

ـ لماذا لم تأت أم علي على سيرة ولدي علي؟!.. وأُمي؟!.. وأبي؟!.. وشيماء؟!.. وياسر؟!.. لا بد أن أُموراً قد حصلَتْ.. قلبي يحدثني.. بمصيبة.. يا الله لقد قالَت آخر الرسالة.. المفجوعة أم علي.. ما معنى عبارتها الغامضة تلك؟.. ليتني أكون مخطئاً..

وراح قلبه يعتصر الطَرقات، وكأنه قد غص في خفقانه، فهلت في عينيه دموع حارة، ودارت به دوامة اللغز الذي لا يفسره أحد، سوى زوجته..

وحاول الفرار من كابوس الخواطر السوداء الذي صعق فؤاده، لكنه لم يفلح أبداً.

بعد ساعات طويلة؛ أطلَّت مدينة شيراز. خرج أحمد بسيارته من المدينة، وانطلق على طريق طويل، كأنه لا آخر له..

مر ما يقارب الساعة، والسيارة جارية، تطوي المسافات طياً سريعاً، وإذ لاحت الإشارة المنتظرة، فقرأ بفرح من بعيد:

ـ مدينة جهرم..

خفف من سرعة السيارة، واتجه في طريق تصاعدي، نحو الشرق؛ فجأة طالعته إشارة:

ـ مخيم المهجرين العراقيين!!..

فاتجهَ بالسيارة نحو اليسار بحسب الإشارة، وانطلق في طريق فرعي، راح ينخفض به، حتى بلغ مشارف سهل فسيح، تخللته صخور متباعدة، وبقايا حصيد يابسة صفراء..

عشرات الخيم، بل المئات، انتشرت على نسق.. فبدت متكاتفة من بعيد، كأنها غيوم سوداء ورمادية.. استقرت على الأرض.. وهنا وهناك بيوت جاهزة ومبانٍ بسيطة ومواقع لتوزيع المياه والمؤونة.

بدت صغيرة في عيني أحمد، وأخذت تكبر، حتى بات يرى على جوانبها الناس، وبدأ يميز بين صورهم.. أوقف السيارة قرب منفذ وسط الأسلاك الشائكة، وتقدم من الحرس على مدخل المخيم، فحياهم، وتقدم شاب بينهم.. ذكره بشقيقه صلاح، بعينيه السوداوين وشعره الأسود..

سألَه الشاب:

ـ نعم.. تفضل..

قال بهدوء:

ـ زوجتي هنا..

فعاد الحارس إلى السؤال:

ـ ما اسمها؟.. من أين جاءت؟..

فأجابه عما سأل، فعمد إلى لوائح كانت بين يديه، ثم قال، بعد لحظات:

ـ تفضل.. هي إلى الجهة الغربية.. رقم الخيمة ٧/٤٠

خطا أحمد إلى الداخل على أعشاب يابسة، واتّجه غرباً..

هاله ما شاهده!! آلاف من العراقيين، الذين تم تهجيرهم من العراق..

كان أكثر ما لفته، العيون الحزينة.. حتى الأطفال كانت الكآبة تلوح في عيونهم، لامعة في حدقاتها..

لكنهم كانوا يتلهون، ويمارسون ألعابهم البريئة، وقد علت جلبتهم، لاهين، في ثيابهم الملطخة بتراب الغربة.. حتى الدمى التي لاحت في أيدي بعضهم.. كانت مثلهم.. عيونها حزينة..

أما النساء، فكن كالتماثيل التي أثقلها الزمن بطوارئه وغباره.. وجوه باهتة.. صور توشك أن تمحى معالمها..

أما الشيوخ، فكانوا عجزاً في حركاتهم، لكنهم أقوياء في نظراتهم الثاقبة.. وعيونهم لا تدمع..

تقدمت من أحمد طفلة لم تتجاوز العام الرابع من عمرها، ونظرت إليه بعينين دامعتين، فيما كانت النسمات الحادة تعبث بشعرها الذهبي اللامع، فاعترضته بالقول:

ـ هل أنت بابا؟.. لا..

وجرت بقدميها الصغيرتين.. متعثرة.. لا تلوي على شيء..

حاول جاهداً ابتلاع ريقه، فغص، وتابع السير..

فجأة، هتف بصوت مسموع:

ـ ها هي.. عند باب تلك الخيمة الصغيرة.. لكنها

وحيدة.. لا.. لكنها أشارت بيدها من بعيد، فهرول جارياً صوبها، حتى إذا لم تبق بينهما سوى بضعة أمتار، تسمرت قدماه في الأرض، وتمتم:

ـ هل هذه ياسمين حقاً؟!.. لقد تغيرت كثيراً.. نحل جسمها بشدة.. وبهت لون وجهها الأسمر، برزت نتأتا خديها الغائرين.. بلى.. هي..

وبالكاد هي الأُخرى، تعرفت عليه، إذ تمتمت:

ـ يا الله!.. هل هذا أحمد؟!.. لحية كثيفة.. وسمرة شديدة.. ونظارة طبية.. وبزة عسكرية.. كم غيرته الأيام!..

أخيراً، بلغ حدود الخيمة، فصرخ بلهفة وحيرة شديدتين، وقد شد بكفيه على كتفيها الواهنين:

ـ ياسمين.. حبيبة عمري.. ها أنت أخيراً.. لم أكن أتخيل أن أراك يوماً.. حتى ولا في أحلام سباتي..

أجهشت بالبكاء، وكانت أوصالها ترتعد، كما لو أنها أصابتها قشعريرة البرد، فتهالكت بين ذراعيه، وحملقت في وجهه، ثم ألقت برأسها إلى عنقه.. وغلب على لسانها الصمت، وتقطعت أنفاسها، فلم تنطق بكلمة..

أدخلها الخيمة برفق.. فتعانقا عناق حبيبين غريبين..

بعيدين عن الأهل والأحباب والوطن.. بعد فراق زاد على السنة..

بكى أحمد، بلا دموع، وبكت ياسمين بكاءً مراً.. هز شرايين قلبه حرقة..

حاول تهدئة خاطرها، وهو لا يكاد يمتلك أعصابه المنهارة إلا بصعوبة بالغة، وراح يقبلها على رأسها وخديها، وجلسَ إلى جانبها، على حصير عتيقة، كانت في الخيمة، ثم قال لها متلعثماً:

ـ حبيبتي.. هدئي من روعك.. أنت بأمان.. ألم تفرحي بلقائي؟.. ما بالك صامتة.. هيا أخبريني.. لم أنت وحدك؟!.. كيف سُفرت؟.. ماذا جرى معكم؟.. أين أبي.. أُمي.. شيماء..؟.. أين نور عيني علي؟ وماذا جرى لطفلنا الجديد.. لقد تركتك وأنت في الشهر الثالث من الحمل.. أجيبيني.. أرجوك..

كان يلح عليها، وهو في ذهول رهيب، لا يقوى على الصبر، ولو دقيقة واحدة، لكن بكاءها المرير كان يخنق أنفاسها، ويمنعها من الحديث، أو أنها لم تكن تدري بماذا تجيب! ومن أين تبدأ.. وأخذ يعتصر الحروف اعتصاراً، بغية تهدئتها، واستدراجها بالكلام، فقص عليها ـ بإيجاز ـ

رحلته إلى إيران، وآخر الأمر قالَ بكلّ تلطّف، ولم يستطع إخفاء تأثره:

ـ لن ألح عليك بالسؤال.. استرجعي أنفاسك.. تحدثي على راحتك.. قولي ما يحلو لك.. هل يسرك أن أموت قهراً وحيرة؟.. ستقتلينني إذا لم تخبريني..

حينذاك، أخذت تلمح عن بعض الأُمور، فقالَت وهي مجهشة بالبكاء، تندب، وتضرب خديها بكفيها المرتعشتين:

ـ أحمد.. لقد حصلَت مصائب لا يحتملها قلبك.. فاجعة فوق التصور والكلام.. فكيف تريد أن يطاوعني قلبي ولساني؟.. وأسبل أحمد كفيه بحنان على كتفيها الرقيقتين، وثبت ناظريه في عينيها..

فانفجرت بالنحيب، واختنقت بالدموع، ومضت تخوض في تفاصيل المأساة..

ومضى هو يرافقها بكل حواسه في سردها أخباراً تنجلي من أعماق الغموض، فكان كلما طلع خلالها فجر جديد، غرب بعيده وجه يحبه، فأفجعه وقع المأساة، وأبكاه، وانحبه..

وترك لحدسه العنان، وترك لمخيلتها أن تستعيد نسج

حكايا عن جولات غامضة، تضرب عبر الزمان، وتنتقل بهما من حاضر اللحظة إلى أزمنة موغلة في الماضي الرهيب، أزمنة تحمل مع كل فجر جديد حادثة تثير شجونه وشجونها، وتجعل للدموع سلطاناً عليهما.. ليس لهما تجاهه قوة ولا حول.

# الدار الخالية

## ٢٤

إثر اختفاء أحمد بعد أن فر مع زميله عباس إلى إيران، اعتبر هارباً إلى داخل العراق؛ فصدرت بحقه مذكرة إلقاء قبض؛ تقضي بسوقه إلى الاستخبارات العسكرية.

ولكن المفاجاة الكبرى التي جعلت المخابرات العامة من جهتها في حالة هستيريا، هي الاعترافات التي انتزعت من معتقلين انهاروا تحت أساليب التعذيب، وعرفت المخابرات من خلالها انتماء أحمد السياسي ومسؤولياته التنظيمية والعمليات الميدانية التي اشترك فيها أو قادها، أهمها عملية الهجوم على مديرية أمن الرصافة، التي نتج عنها فقدان وثائق هامة وخطيرة، ظلت بحوزته. فبدأت السلطة القيام بعمليات بحث مكثفة عنه، ظناً منها أنه متخف في مكان ما داخل العراق. فقد داهمت قوات المخابرات بيت السيد عبد الرزاق مرتين في محاولة لإلقاء القبض على أحمد..

في المرة الاولى حاولوا مباغتتهم. اقتحم رجال

المخابرات بيت السيد عبد الرزاق عنوة، بعد ان حطموا البابين الداخلي والخارجي.. كأنهم في مهمة عسكرية خطيرة.. وسط صراخ الصغار والنساء.. اللاتي كن يلذن من غرفة إلى غرفة ليسترن أنفسهن..

فتشوا في كل زاوية في البيت.. قلبوه رأساً على عقب.. ولكنهم لم يجدوا أحمد.

رجل مربوع الجثة، كثيف الشعر، شديد السمرة، في عقده الرابع.. يبدو انه آمر القوة.. تقدم نحو أبي عادل وبدأ يضغط بمسدسه على خده، وبيده اليسرى يمسك بشعر رأسه من الخلف، وسط صرخات أم عادل وهي تنظر من بعيد.

ـ نريد أحمد..

قال آمر القوة ذلك بنبرة تهديد جافة.

ـ أحمد!.. قسما بالله العظيم لم نره منذ اعتقلتموه.. ولا أحد منا يعرف عنه شيئاً..

فقاطعه الرجل وهو يبصق على وجه أبي عادل، ويشتمه ويسب الله:

ـ سنريكم يا خونة ياجواسيس إيران.

ناول آمر القوة السيد عبد الرزاق ورقة صغيرة تحمل رقم هاتف..

ـ تبغلنا عن اي أثر له فوراً، وإلا سنأخذكم معنا جميعا في المرة القادمة.. نحن لانعرف الصبر..

وقال وهو على دهشته:

ـ حاضر.. أبلغكم عنه.. لكن أين هو؟..

مرة أخرى بصق الآمر بوجه أبي عادل وهو يشتمه ويهدده بمصير أسود إذا لم يسلم أحمد نفسه..

لم ينم أحد تلك الليلة إلا إثر صلاة الفجر، كان الوجوم والصمت الرهيب سيد الموقف.. الرعب يدب بقوة في أفئدتهم، وكل منهم يتحدث في سره:

ـ اللهم ارحمنا.. يارب.. ونجنا من شرهم المستطير..!!

ـ يا ويلتي.. المصائب لاتنتهي.. ماذا يريدون منا بعد؟..

قالت ذلك أم عادل، فيما كانت شيماء تحدث نفسها:

ـ المجرمون الكفرة.. أخذوه.. وعادوا يسألون عنه.. إذا فر من عندهم.. ما ذنبنا؟.. لعنة الله عليكم.

همست أم علي، وهي تمسح بيدها شعر ابنها الكستنائي الأملس:

ـ يا خوفي عليك يا ولدي.. أين أفر بك لأحميك..

وفي ظهيرة أحد الأيام، فيما كانت أم عادل تقوم بإعداد طعام الغداء، وكانت أم علي منهمكة معها، وعلي يلعب بكرته الحمراء الصغيرة، فيضربها على الجدار، ويحاول إمساكها، ويجري خلفها في أنحاء البيت، بينما كان جده يطالع كتاباً عن «غاندي»..

في تلك الأثناء، التفتت أم عادل من خلال شباك المطبخ بالصدفة، فشاهدت رجالاً مسلحين في الحديقة، والعديد من السيارات المدنية والعسكرية خارج السور..

فوراً، أطفأت فرن الغاز، وهتفت بياسمين:

ـ غادري المطبخ حالاً.. خذي علياً وادخلي غرفتك على الفور.. لا تسألي..

ثم خفت إلى زوجها مذعورة، تهتف به:

ـ أبا عادل.. رجال الأمن طوقوا البيت.. ماذا سنفعل؟..

فلم يجبها، بل هب نحو الشباك، وأخذ ينظر إلى الخارج.. بينما كانت أم علي تشد بولدها نحو الداخل، وهو يرفض هاتفاً:

ـ ماما.. دعيني ألعب..

في تلك اللحظة، سمع دوي غريب، أرعب الجميع، نتج عن دفع الباب إلى الانخلاع طرقاً بأعقاب البنادق،

فانفتح على مصراعيه، ليتدفق عبره العديد من رجال الأمن والمخابرات، بثيابهم المدنية، ومسدساتهم وبنادقهم..

جأر الضابط ذاته، وهو ينتصب بقامته، ويحدق من خلف عدستي نظارته السوداء:

ـ كل في مكانه.. لا أحد يتحرك..

ثم توجه إلى مرافقيه بالأمر:

ـ فتشوا البيت.. لا تتركو خرم إبرة..

تسمر الجميع في أماكنهم، حتى علي الذي خرجت به أمه عند سماع الدوي، جمد في مكانه ممسكاً بثوبها الأزرق، وقد غطى وجهه به.. وعاد الضابط إلى القول مخاطباً أبا عادل وهو يربت على كفه اليسرى بهراوة قصيرة، حملها باليمنى:

ـ هذه المرة الثانية.. ولم أجد منكم أي تعاون.. إسمع جيداً.. حياتك.. وحياة جميع أفراد عائلتك.. وحياة هذا الطفل ـ وأشار بالهراوة نحو علي ـ في كفة.. وتلبيتك لأمري.. في كفة..

صعق الجميع، وتداعى صوت أبي عادل:

ـ تفضل.. نحن أمامك.. والدار تحت تصرفك..

فعاد الضابط ليقول بصوت أشد صرامة:

ـ إسمع يا عبد الرزاق.. أين اختبأ أحمد؟.. أولاً.. وأين خبأ الوثائق ثانياً.. أجبني فوراً.. وإلا..

فبادر أبو عادل إلى القول بكل روية واتزان، تجنباً لاستفزاز آمر القوة:

ـ يا أستاذ أحلف لك بكل المقدسات.. أحمد ذهب معكم منذ أشهر.. ولم نعد نسمع عنه شيئاً.. ولم نتجرأ على السؤال عنه.. لا بد أن مصيره مسجل عندكم.. أو في مديرية الأمن العام.. أما الوثائق التي تفضلت بذكرها.. فلا أحد في البيت على علم بوجودها.. لا من قريب.. ولا من بعيد.. الجميع أمامك.. حقق كيفما تشاء..

وبإيماءة من الضابط بالرأس أهوى أحد العناصر بعقب بندقيته على كتف أبي عادل، فطرحه أرضاً، وخطا الضابط، فضغط على وجهه ببطن حذائه الغليظ وهو يقول:

ـ قل كلاماً آخر..يا ابن الـ (...) يا خونة.. أنت وعائلتك..

وما أن تحركت أم عادل خطوة باتجاه زوجها، حتى تلقت ضربة هراوة على رأسها فسال منه الدم حاراً، ولطخ وجهها وخديها، وانساب على عنقها.

فصرخت ياسمين، ودفعت بنفسها نحوها لتمسك بها،

فدفعها أحدهم صافعاً وجهها، لتترنح بغير اتزان، وتسقط بين الأقدام.. ولما صرخ علي وهو يهتف:

ـ ماما.. ماما..

تناوله عنصر ضخم الجثة من شعره، فضربه بالجدار، وتركه، فتكوم على الأرض صامتاً، يحرك أطرافه الغضة على غير هدى..

انتشروا في جميع غرف البيت، وهم يعيثون فيه تفتيشاً، لم يتركوا زاوية، أو ركناً، أو خزانة.. حتى الثلاجة، وفرن الغاز، لم يوفروها.. وهم يمعنون فيها نبشاً..

أخيراً عادوا وقال أحدهم:

ـ سيدي المقدم.. لم نجد شيئاً.. لا وثائق.. ولا ذهب..

فعاد الضابط ليخاطب أبا عادل الذي لا يكاد وجهه يُرى من لطخ الدماء:

ـ أين بقية أفراد عائلتك؟.. شيماء.. وياسر..

لكن أبا عادل لم يجب.. وكأنه بدأ يعد نفسه لمرحلة أكثر خطورة.. وأشد صعوبة.. رحلة الغوامض.. والمشقات.. والمآسي..

وعاد الضابط ليقول لعناصره:

ـ ضعوا القيود في معاصمهم.. واخرجوا بهم إلى السيارة..

فقيدت أيادي الجميع، حتى علي، ونهروا بالأرجل، والهراوات، والأيدي، حتى وقفوا جميعاً، فأمسكوا بهم واحداً واحداً، واقتادوهم إلى الشارع.. تحت الشمس..

كان ياسر في تلك الأثناء على وشك الوصول من المدرسة، فشاهد مع زملائه تلك الزحمة من بعيد، فتوقفوا ينظرون إلى ما يجري، بحذر وفضول..

وإذا بأحدهم يلتفت إليه بذعر، ويهتف بانفعال شديد:

ـ ياسر.. ياسر.. انظر.. أهلك.. إنهم يدفعون بهم دفعاً.. ويجرونهم بعنف.. انظر.. أمك حاسرة الرأس.. تصرخ..

التفت ياسر، ولم يصدق ما يراه، فتجمد مشدوهاً للحظات، ثم جرى كالبرق، وقد رمى بحقيبته المدرسية أرضاً.. وهو لا يدري إلى أي منتهى تجري به قدماه..

هجم على رجل الأمن الذي كان يدفع أمه أمامه بأخمص البندقية، فدفعه عنها دفعة قوية، أوقعته أرضاً..

تقدم من ياسر عنصر مخابراتي آخر، وراح ينهال عليه ضرباً بالهراوة، والكفين، وهو يدور حوله مترنحاً، ويصرخ به، ويهتف بأعلى صوته:

ـ يا مجرمون.. يا ذئاب.. أنتم ورئيسكم.. اتركوا أمي.. اتركوا أهلي..

فاجتمع عليه العديد من رجال الأمن، وأخذوا يكيلون له الصفعات المتوالية على وجهه، ثم أمسك به اثنان، وهو يخبط بينهما كيفما كان، حتى تمكن من الإفلات من أيديهما، وجرى مطلقاً ساقيه للريح، على غير وجهة مقصودة..

وتتالت الصيحات والتهديدات:

ـ قف.. مكانك.. قف..

حتى إذا كاد يقارب الخمسين خطوة من الابتعاد عنهم، إذ بالضابط آمر القوة يشهر مسدسه، ويصوب فوهته نحو ياسر، ويطلق ثلاث رصاصات متوالية باتجاهه.. توقف فجأة عن الجري، ثم تمايل كالغصن الغض، ألوته عاصفة هوجاء، وكسرته، فسقط طريحاً على الأرض، والدم يتدفق من فمه وخاصرته.. لقد أصيب برصاصة في صدغه، وبثانية في ظهره.. لكنه تململ للحظات متخبطاً، ثم نهض متهالكاً، واستدار راجعاً نحو الدار وهو يتمتم هاذياً بتوجع وينظر بذهول إلى دمه الذي يحمله بيده:

ـ ماما.. بابا.. لقد قتلوني..

انتفضت أم عادل كالنمرة الأسيرة بين أيادي رجال الأمن وبنادقهم، فدفعت بهم عنها بقدرة الأمومة الجريحة، واخترقت طوق سواعدهم، وجدار صدورهم، وهرولت باتجاه فلذة كبدها المضرج بالدماء، مولولة:

ـ يا ولدي.. يا ياسر.. فداؤك أمك يا ضوء عيني.. قتلوك الكفار الوحوش.. يا ويلي.. ياسر.. ياسر.. ياسر..

التقيا في أواسط الشارع، فألقى بنفسه عليها، واحتضنته معانقة، وهو يفيض عليها من دمه الوردي، فيوشي ثيابها ويديها، كأنه يزينها.. لتحتفي بزفافه.. برحيله مع عروسه التي اختطفته. كانت أم عادل تزأز بوجع شديد:

ـ يارب.. ياجبار.. يامنتقم.. انتقم من صدام وجماعته المجرمين.. يارب أما لهذا الدم البريء من تأثير في غضبك.. يارب أين غضبك..

نظر في عينيها الزائغتين نظرة رضى عميق، وتبسم لها بفمه الوردي المدمى، وهو يتمتم، واللهاث يقطع النبرات في صوته:

ـ أماه.. حضنك جنتي.. وعيناك سلواي.. أنا راحل يا أمي إلى حيث أخي صلاح.. والشهداء.. لو خيرت يا أماه.. لاخترت البقاء في حضنك الدافىء.. أمي.. دعيني أكحل

عيني بصورة وجهك الحبيب.. وأطبق عليها جفني.. فيؤنسني وجهك الأعز على قلبي.. في رحلتي الأبدية..

ولما أعيا لسانه الرمق الأخير، وأوهن قواه، أسقط يده التي كانت تتلمس وجهها، وترسم على صفحته بقعاً حمراء غامضة الأشكال، أرخى برأسه على ركبتيها المرتعدتين، وفتح عينيه أبداً، وقد غربت في آفاقهما نضارة الألوان، وخفت بريقهما.. حتى انطفأ؛ فسادهما ليل أبدي.. لا نجوم في سمائه.. ولا أقمار..

وأخذت تقبله بحنان، ولوعة، وهي تشرق بدموعها، وتصرخ متأوهة:

ـ يا ياسر.. يا ولدي.. لا ترحل عني.. ستعيش يا صغيري.. اسبح في بحر دموعي.. لا تفارقني.. أفتديك بحياتي..

لكن ياسر لم يسمع ما قالته، كان قد أسلم الروح بين يديها، ورحل تحت سكب دموعها اللاهبة، انطفأ كومضة البرق إذ لمعت، أضاءت، ومضت إلى الأبد..

سُحبت الأم المفجوعة عن جثمان ولدها المطروح أمامها، سحبت من شعرها، وقد فقدت رشدها، فبدت منهارة تماماً، وكأنها قد أضاعت عقلها.. تبكي وتضحك معاً، وتلطم خديها.. وهي تشتم صدام وأعوانه.. وتطلب من ربها ان ينتقم لها الآن.. الآن..

أما أبو عادل، فقد أنهكه الضرب بالأيدي، والركل بالأحذية، والخبط بأعقاب البنادق، وهو يصرخ بوجوههم محاولاً الوصول إلى ولده المضمخ بالدماء، والمعفر بالتراب:

ـ يا مجرمين.. يا طغاة.. ما ذنب ولدي يا قتلة؟.. لقد سماكم ياسر ذئاباً.. إذ كنتم تنهشون أمه.. لعنة الله والملائكة عليكم.. يا الله.. يا الله..

ولم يكن يبالي بكل ما لحق به من الأذى، حتى ولا بالدماء التي خضبت وجهه، وكادت تحجب عينيه بحمرتها..

شهر الضابط مسدسه نحو رأسه هاتفاً:

ـ قسما برأس السيد الرئيس.. إذا لم تخرس فوراً.. سألحقكم هنا.. في الشارع.. جميعا.. بولدك القذر.. ما قلته مسجل عليك حرفاً حرفاً.. وهو كاف لإعدامكم دون استثناء..

أركب الجميع في سيارة بيك آب مكشوفة، حيث قذفوا واحداً واحداً إلى مقعدها الخلفي الواسع، وهم يولولون، ولا يكادون يقدرون على الحراك، أو التنفس..

وحين تحركت السيارة بهم؛ كانوا ينظرون إلى جثة ياسر

الغارقة بالدماء والتي بقيت مرمية وسط الشارع، ويمدون أيديهم باتجاهها وهم يتصارخون:

- ياسر.. ياسر..

في حين كانت عناصر المخابرات التي ركبت معهم تضربهم بأعقاب المسدسات لإسكاتهم..

كانت قافلة السيارات تسير بسرعة، تنهب المدى، وتطوي الشوارع، وهي تنفث دخاناً أسود كثيفاً يكاد يخنق الأنفاس، وتنثر غباراً يغشى النواظر، فتمتلئ القلوب رعباً، بعد أن عصبوا عيونهم بقماش أسود سميك.. حتى علي لم يعفوه من العصبة..

بعد مسار طويل كانوا يهتزون خلاله كالأوراق الصفراء اليابسة، وهي تعبث بها الرياح العاصفة في فصل الخريف، توقفت بهم السيارة، فأنزلوا وفكت العصب عن عيونهم، والقيود من معاصمهم، ثم اقتيدوا كأسرى حرب وادعين، لا حول لأحدهم، ولا قوة، عبر بوابة حديدية سوداء ضخمة، وأنزلوا عبر عشرات الدرجات المحفرة، وانحرفوا بهم ليخطروا في ممر طويل، تتخلله عشرات الأبواب المقفلة؛ ففتح باب وأغلق على أم عادل وكنتها ياسمين وعلي، وباب آخر على أبي عادل، فتح وأغلق.

نظر علي ـ وقد أبكمته اللحظات الفائتة ـ حوله، وهمس بذهول وهو يرتجف من الخوف:

ـ ماما.. النور شحيح.. لا أكاد أرى وجهك.. هل سيبقى عمي ياسر نائماً على الطريق؟.. لماذا لم يأت معنا؟.. أنا خائف.. وبردان.. وجائع.. وعطشان.. ماما..

وما لبث أن غفا في حضن أمه البارد وهو يرتعش..

لازمت ياسمين صمتها وشرودها، وكذا أم عادل.

أما أبو عادل فقد قبع في زنزانته الانفرادية المعتمة، مقوس الظهر، يمسح الدم اللزج عن عينيه، وهو يحدق في سقف الزنزانة، وقد همس:

ـ النور الليلة حالك السواد.. ما عساه يكون لونه ليلة غد يا ترى؟..

## ٢٥

قامت مجموعة من رجال المخابرات بحمل جسد ياسر الغض في إحدى سياراتهم، وانطلقت مسرعة وهي تمعن الضجيج في المنطقة.. وكأنها تقول لمن ينظر من خلف ستائر الشبابيك.. سيكون هذا مصير كل من يفكر في معارضتنا..

كل ما جرى، حدث تحت أنظار معظم الجيران، وعلى مسامعهم.. كانوا في حالة رعب.. ينظرون من خلف ستائر الشبابيك، وآخرون يمعنون النظر من فروج الأبواب أو من فوق السطوح، فيما لم يجرؤ بعضهم على النظر، وحتى على السماع.

أما آراؤهم فتراوحت بين لاعن لليوم الذي وصل فيه الحزب الحاكم إلى السلطة، وبين لائم لتلك العائلة المسكينة التي ورطت نفسها في موقف كهذا..

بقي عدد من عناصر المخابرات داخل البيت بانتظار الصيد القادم.. شيماء.

لم تكن شيماء حينها قد عادت من بيت إحدى قريباتها التي تقيم في محلة قريبة، حيث كانت تتعلم الخياطة منذ أن تركت الدراسة في الجامعة، بعد المضايقات الشديدة التي تعرضت لها، بسبب إعدام أخيها صلاح، واتهام عائلتها بالخيانة، وارتدائها الحجاب.

عصر ذلك اليوم الأسود، عادت متهادية إلى البيت كعادتها، غير أنها لاحظت أموراً مريبة تجري حولها، وهي في أواسط الشارع المؤدي إلى البيت، فتساءلت في نفسها:

ـ ترى ما الأمر؟.. الجيران ينظرون إلي نظرات لم

أعهدها منهم قبلاً من خلف زجاجات الشبابيك.. وعبر شقوق الأبواب.. وهذه جارتنا العجوز تشير لي بإشارات غامضة بيديها.. كأنها تقول لي.. عودي من حيث أتيت.. ارحلي سريعاً من هنا!. ولماذا خلا الشارع من المارة؟.. وخلت الشرفات؟..

وإذ ببقعة من الدماء وسط الشارع، تطالع ناظريها، توقفت إزاءها للحظات، وهي تقول في سرها الحائر:

ـ دماء.. ماذا جرى؟.. دماء من هذه؟.. يكاد قلبي ينخلع من بين ضلوعي.. ما بالي؟.. تجذبني هذه الدماء!.. كأنها تناديني!.. كأنها تود وداعي!..

وتابعت سيرها، وكأنها تقتلع أقدامها من الأرض اقتلاعاً.

شاهدت في المكان سيارتين، قرب سور الحديقة، فازدادت ريبتها، وأسرت لنفسها تقول:

ـ لا بد أن مشكلة قد حصلت في شارعنا..

دخلت عبر البوابة الحديدية السوداء، وسارت على ممشى الحصى، وسط الحديقة الذابلة، وفيما هي تحدق بالأغصان اليابسة، إذا بيمامة تنظر إليها، وترسل سجعات لم تسمع بمثلها حزناً من قبل، فأشاحت بوجهها عنها، وجمد الدم في عروقها، فهتفت:

ـ يا ويلي.. ما الذي حصل؟.. يا إلهي.. رحماك..

رأت باب الدار مفتوحاً مخلعاً، وقد تحطمت جل أجزائه.

تسمرت في مكانها للحظات، ثم اندفعت نحو الداخل، وهي تكرر عبارات الأسى والدعاء مرات ومرات، مرتبكة، مذهولة.. كان كل شيء من حولها مقلوباً رأساً على عقب.. التفتت إلى صالة الاستقبال، فهالها ما رأت.. المقاعد انطرحت على جوانبها وأقفائها، المناضد ألقيت جانباً، الصور التذكارية للعائلة، طرحت على الأرض، وقد تحطمت أطرها، وتناثرت زجاجات براويزها، وتمزقت معظم الوجوه فيها، قالت وهي شاردة الذهن:

ـ هذه صورة صلاح وعروسه زهراء البائسة.. ما يزال صلاح كما هو.. يحدق إلى المجهول.. بعينيه السوداوين.. يا إلهي.. لقد تمزق فمه.. فغابت افترارته الحلوة.. «يا حبيبي يا صلاح.. كنت عريساً لأيام.. ورحلت..»

هذه بقايا صورة عادل.. ونور.. وآمنة وهشام.. سحق زجاجها.. فتشققت وجوههم جميعاً.. لكنهم ما زالوا يبتسمون..

هذا أحمد.. إلى جانبه علي وأمه.. لم يبق من الصورة.. سوى ابتسامة علي..

ورأت لطخات دماء على صفحة الجدار، ترسم عليه صورة غريبة المعالم، فهتفت:

ـ يا إلهي.. دم من هذا؟..

ورأت عصا أبيها، ونظارته محطمتين في إحدى الزوايا، وقد تناثرت حولهما مجلات ممزقة الصفحات، وأوراق، وكتب ممزقة، فهمست شاردة:

ـ هذا مكان أبي وهو يطالع مجلته.. أو كتاباً كعادته..

ثم راحت تهيم بين الغرف، تتفقدها واحدة واحدة محدقة بأحوالها، وما طرأ على محتوياتها، وهي تنادي أحداً، كلما أطلت من باب غرفة، وتعيد النداء، ولا من مجيب، وحدثت نفسها متسائلة:

ـ هل يمكن أن يكون أولئك الأنذال، قد فعلوها؟.. حسبي الله ونعم الوكيل!..

دخلت غرفة والديها، وغرف أخوتها، وهي تناديهم واحداً واحداً، فلم تجدهم، ولم يختلف سوء الوضع بين غرفة وغرفة، كل شيء يرمى رمي، وكل ما يمكن تحيطمه حطم، وانتثرت كل الأشياء على أبسطة الغرف.. الثياب

والكتب والأقلام، والشراشف، وكل ما يمكن تصوره موجوداً في غرفة من أثاث وأغراض ولا أحد في الغرف مطلقاً.

كانت تتصورهم جميعاً، وكأنها تسمع وقوع أصواتهم وأصداء ضحكاتهم، وكأنهم يودعونها وداعاً لا رجعة بعده..

وكانت عند كل باب تتذكر أياماً عبرت، وأحداثاً غابت في طوايا النسيان:

ـ هنا أمي كانت تجلس إلى ماكنة الخياطة، هذه نظارتها لم تزل على حافتها.. كم فستان خاطت لي هنا.. حتى لعبتي حين كنت صغيرة.. كانت لها فساتين خيطت على هذه الماكنة المحطمة..

هنا كان ياسر يراجع دروسه ويكتب.. وهنا كانت آمنة وعلي يملآن البيت مرحاً وصخباً.. وهنا أخي عادل.. كان يلاعب صغيره هشام.. وهنا كان يجلس أخي صلاح.. يمارس هوايته في إصلاح أجهزة البيت الكهربائية.. ترك كل شيء.. ورحل.. هنا كان عادل.. يساعد نور.. في ترتيب المكتبة.. المحطمة التي تطايرت منها الكتب.. هل انتهى كل ما كان؟!..

ولم تفق ـ بعد ـ من خواطرها وتخيلاتها، حتى فتحت باب المطبخ.

وإذا بها تباغت بثلاثة من رجال المخابرات، كانوا بانتظارها، فأغلقت الباب، بالصدمة غير المقصودة، ودارت إلى الخلف، فإذا اثنان، ينزلان من على السلم، أمسكا كل منهما بأحد معصميها، وخرج الآخرون الثلاثة من المطبخ في ذات اللحظة، فأحاطوا بها جميعاً، وخاطبها أحدهم ـ لعله الضابط ـ بازدراء، وسخرية، وهو يرمقها بخبث:

ـ أهلاً بالحلوة.. شيماء عبد الرزاق.. ستكونين ضيفتنا.. وربما ستقيمين عندنا إلى الأبد.. في مدفن المديرية.. وراح يربت بهراوته الصغيرة على كفه اليسرى، ويحدق في وجهها الذي تماوجت فيه ألوان الرعب والخجل، بصفرتها الغامقة، وحمرتها القانية..

وقال آخر من خلف نظارته السوداء، وقد دار بقامته المديدة حولها، وأحنى منكبيه العريضين قليلاً، وأثنى برأسه الأصلع على رقبته الغليظة قرب وجهها:

ـ أتعتقدين أن عينيك العسليتين.. سيدوم سحرهما؟.. وهذا الخصر النحيل.. سيبقى خصراً؟!.. وهذين الخدين الموشحين بألوان الورد.. وقطر الندى.. سيدوم وردهما؟..

ثم أمسك خدها الأيسر برؤوس أصابعه اليابسة، وشد عليه شداً مؤلماً، فبصقت بوجهه:

ـ أتركني ياقذر.

فصفعها صفعة، أحدثت في أذنيها طنيناً، صم مسمعها طويلاً، وطبع على صفحة خدها الرقيق الطري، رسم خمسة أصابع غليظة، قاسية..

وكشر عن أنيابه، وهو يتوعدها، ويشتم:

ـ لا بأس.. يا عاهرة.. سنمضي أياماً حلوة في المخابرات.. في الدهاليز السفلى..

ثم قيد معصميها بالسلاسل.

بعد ذلك، اقتادوها إلى خارج الدار بالقوة، وهي صامتة، مصدومة، تحدق في وجوههم بعينين دامعتين، ووجل شديد، فعصب ذلك الأرعن عينيها بشدة، ثم دفعها إلى مقعد السيارة الخلفي، ومضت تلك السيارة الرمادية تنطلق بسرعة هائلة، ومن خلفها سيارة أخرى..

غطت شيماء في سبات عميق، رغم اهتزازها العنيف خلال انحدار السيارة، وصعودها، والتفافها، حسب الطريق المرسوم لها.. لعلها تحلم حلماً لطيفاً غير ذلك الكابوس الرهيب الذي كان يعتريها..

ولم تشعر بشيء وهي في الطريق من شدة الصدمة؛ إلا حين نهرها أحدهم بصوته الأجش، وهو يربت على رأسها بهراوته ويشتمها:

ـ هيا يا ساقطة.. ياجاسوسة.. إنزلي..

نزلوا بها درجات عديدة، فيما كانت قدماها تتعثران بها، وتنوءان بحملها، حتى بلغوا باباً حديدياً ذا رقم، فتحه عنصر كان واقفا.. استمهلها بصفعة قوية على وجهها.. تطوعا.. دون أن يعرف من هي أو لم جيء بها إلى هنا؛ فحل العصبة عن عينيها، وفك السلاسل من معصميها، ودفع بها بركلة من قدمه اليسرى إلى داخل تلك الغرفة، وأغلق الباب، وقال، فيما سمعت وقع دوران المفتاح في قفل الباب:

ـ جواسيس خونة.. سترين مانفعل بك هنا.. يا ساقطة.. يا لقيطة..

حدقت بما حولها، فإذا بها في جحر صغير جداً، لا يتسع لنصف شخص؛ لا ترى فيها شيئاً. ووجدت قنينة ماء رائحتها نتنة، وفيها ثمالة.. شربتها دون وعي.. وأوت إلى مرقدها الجديد، فذهبت في غفلة رقادها بلا أحلام.. وكأنها في عالم آخر..

## ٢٦

أفاقت شيماء منتفضة إثر طرقات عدة على الباب، وصوت لم تعهد سماعه:

ـ شيماء عبد الرزاق.. استعدي.. إلى التحقيق..

بعد لحظات، انفتح الباب، فإذا بشاب في عقده الثالث، معتدل الجسم، قصير الشعر، يدعوها بلهجة أقل عنفا من صاحبه:

ـ أنت شيماء؟ حقا؟!.. ظننت أني سألقى عجوزاً كالتي لقيتها قبلك.. منذ دقائق..

نهضت بسرعة، ولم تنطق بحرف، فقال لها:

ـ اتبعيني.. هل فهمت؟..

توقف بها عند باب طرقه بلطف، ثم فتحه ودخل، فدخلت خلفه، وقال مؤدياً التحية العسكرية رافعاً كفه اليمنى إلى جبينه:

ـ سيدي النقيب.. هذه شيماء عبد الرزاق..

وانصرف.

رجل أجلح، ذو عينين اسهبتا في الاتساع، تحت حاجبين كثيفي الشعر، وذو أنف منكمش، وشفتين

سميكتين، عنقه غليظ، ومنكباه عريضان، بدا قصيراً خلف مكتبه، وقد ثبت قبضتيه على حافة المكتب، ورأت على سطح مكتبه أوراقاً ليست كثيرة، وهراوة صغيرة، ومسدساً قربه رصاصات مكومة، وبعض الأمشاط..

قال ضابط التحقيق النقيب فلاح بصوت غليظ أجش، وهو في عبوس شديد:

ـ أنت شيماء عبد الرزاق إذن!

فأجابت بصوت خافت، كزفير أنفاسها:

ـ نعم..

فعاد الصوت ليقول:

ـ اجلسي هناك..

ـ التفتت شيماء، وفتحت عينيها جيداً وشهقت:

ـ أأنتم هنا؟!.. أبي؟.. أمي؟.. أم علي؟.. علي؟.. أين ياسر؟!.. يا ويلي.. أتلك الدماء التي رصعت الشارع كانت دماؤه؟..

فلم يجبها أحد، فبكت بحسرة وصمت، وتفجرت عيناها بدموع حرى.. وتقدم عنصر من العناصر الخمسة الموجودين في أنحاء الغرفة الفسيحة الخالية، إلا من ذلك المكتب، وبعض أدوات التعذيب، من سياط، وأحزمة،

وعصي، وهراوات معلقة إلى الجدار الحجري.. وأسلاك كهربائية.. وغيرها.. تقدم ذلك الرجل الطويل المفتول العضلات، فاقتادها من ساعدها الأيسر إلى مقعد هناك، حيث أجلسها، وابتعد عنها قليلاً.

الجميع كانوا في حالة يرثى لها..

أم عادل كانت تئن، ولا تتكلم، وأحياناً كانت تخرج عن صمتها إلى دموعها، ونظراتها المريبة!

أما أبو عادل، فكان يضع كلتا يديه على وجهه، وقد أطرق ذاهلاً!

واحتضنت ياسمين ولدها علي، وغرقت في دموعها ونحيبها الهادىء!

وكان علي يغفو، ورأسه إلى صدر أمه.. كأنه هارب من الحقيقة المرة إلى أحلام الأطفال التي هربت منه..

خلال ذلك، كانوا يسمعون أصداء التعذيب، وصرخات نزلاء المديرية، تصدر من غرف التحقيق الأخرى، وهو ما كان يزيد نفوسهم رعباً.

زعق النقيب فلاح:

ـ أخرجوا الجميع من الغرفة.. وأبقوا على ذلك.. حيث أشار بهراوته إلى أبي عادل..

النقيب فلاح رجل معروف بماضيه، إنه حزبي قديم وقاتل محترف منذ سنوات شبابه الأولى، ومن عائلة سيئة الصيت، انتسب إلى جهاز المخابرات بعد أشهر من انقلاب تموز ١٩٦٨، وبسبب إخلاصه للحكم، وبراعته في التعذيب والتحقيق، تمكن خلال هذه السنوات من الحصول على رتبة «نقيب»، رغم أنه لم يكمل دراسته الابتدائية. يبلغ من العمر حوالي الأربعين عاماً تقريباً. كان ذا قامة قصيرة، وجسم ممتلىء، وبشرة سمراء داكنة، وشاربين مفتولين، وعينين حمراوين، زادهما الإدمان على الخمر وقلة النوم احمراراً، حتى ليبدو وكأنه أكبر من سنه بسنوات.

نهض النقيب من على كرسيه، واتجه إلى أبي عادل، بعد أن أخرجت العائلة، فأمسكه من شعره، وجأر به:

ـ ماذا! أما زلت مصراً على عدم الاعتراف؟.. ألا تريد أن تدلنا على مكان اختفاء أحمد، والوثائق التي بحوزته؟ طيب.. إبق هكذا.. ولكن.. ليكن في علمك، بأنني سأنتزع الاعتراف منك انتزاعاً، رغم أنفك، لأن أحمد مهم جداً بالنسبة لنا.. أتفهم ذلك؟!

وأخذ بالتهديد، والزعيق، تصوراً منه بأنه سيحصل بذلك على ما يريد.. لا سيما وأن أحمد كانت تزداد أهميته

بالنسبة لهم، كلما ازدادت معلوماتهم عنه. ولم تكن إجابات أبي عادل مقنعة للنقيب، حيث قال تلك المرة له:

ـ قلت لك مئة مرة بأنني لا أدري أين مكان أحمد.. ألا تفهم؟؟ منذ أن اعتقلتموه، ونحن لم نطلع على أي من أخباره، يشهد الله بأني لا أعلم عنه شيئاً، ولا حتى العائلة أيضاً.. وكذلك عن الوثائق..

ـ اخرس يا حيوان..

ورافقت كلماته صفعة قوية على وجه أبي عادل، أسالت الدماء من أنفه وفمه بغزراة، ثم استأنف القول:

ـ تصور بأني سأصدقك بهذه البساطة يا كلب، أقسم بشرف الحزب، ورأس السيد الرئيس، بأنك وعائلتك، لن تنجوا من يدي، حتى أعرف أين ذلك العميل المجرم، وأين وضع تلك الوثائق، أو تخرجوا من هنا جثثاً. أو مجموعة من ذوي العاهات.

ثم أشار إلى اثنين من رجاله الذين كانوا في الغرفة رهن إشارته؛ فانهالوا على السيد عبد الرزاق؛ يضربونه، ويرفسونه، حتى أغمي عليه.

وكانت دقائق، أفاق بعدها على إثر كمامات الغاز التي كمموا بها أنفه، والماء البارد الذي صبوه على رأسه.

وعاد صوت النقيب مدوياً بالقول:

ـ والآن.. أتذكرت أين يختفي ذلك الوغد؟ وأين يخفي تلك الوثائقء..

أجابه أبو عادل، وهو خائر القوى:

ـ يا رجل.. بأي لغة أتحدث معك! أقسم بالله بأني لا أعرف وبأنني أجهل أي شيء عنه وعن الوثائق.. وأقسم برسول الله.. فعاوده النقيب بالضرب والرفس، وهو يردد كلماته المعهودة:

ـ خنزير، ابن (...)، أتقسم؟.. بمن تقسم؟

وأخذ يسب، ويشتم الله ورسوله وكل من أقسم بهم أبو عادل الذي ما أن سمع ذلك، حتى بكى بكاءً مراً، مبدياً سخطه، وذهوله من جرأة ذلك الرجل، ثم أخذ يهلل ويكبر بصوت متهدج منخفض:

ـ الله أكبر منك يا سافل، ومن رئيسك، ومن حزبك.. أيها القذر.. أبلغ بكم الأمر أن تسبوا الله.. ورسوله؟!.. ألا أخزاكم الله.. وأرانا ذلكم في الدنيا قبل الآخرة.. بحق أهل البيت.. الله أكبر.. يا ناس يا عالم..

ورد فريق التعذيب على كلامه بالمزيد من أشكال الضرب، حتى أغمي عليه.

حملوه، وعلقوه من يديه المقيدتين من الخلف بسقف صالة التعذيب، وحين أفاق، وجد نفسه على تلك الحال، وبادروه على الفور بصعقات بالكهرباء، فقال النقيب:

ـ سوف أطفىء المصابيح الكهربائية.. وأنير هذه الصالة بعينيك هاتين..

جاؤوا بأفراد عائلته، وكانوا جميعاً مقيدين بالسلاسل..

وأحاطوا بهم، وأخذوا يدفعون بهم بالأرجل، والقبضات، وحتى بالرؤوس، من واحد إلى آخر، حتى انهاروا جميعاً، وهمدوا بلا حراك ملتزمين الصمت، إلا شيماء التي هتفت والدماء ملأت فمها، وسالت على ذقنها، وهي تشب وتنتفض صارخة بوجوههم:

ـ اقتلونا يا مجرمين.. الموت أخف علينا من قذارتكم..

حتى خيل لأبي عادل أنهم قد لاقوا حتفهم جميعاً.

## ٢٧

شعر النقيب فلاح بالعجز أمام ما أبداه أبو عادل من عدم معرفة بشيء، وإصراره على نفي علمه بأي معلومات عن مكاني أحمد والوثائق المصادرة من مديرية أمن الرصافة.

جلس مرة إلى مكتبه منهكاً من شدة ما ضرب، وزعق،

فكان يتأفف ضيقاً، ويتصبب جبينه عرقاً بارداً، تسرح قطراته حتى تبلغ عنقه وصدره.

كانت العائلة المكلومة تركن بوداعة وخوف إلى أحد جدران مكتبه.. بثيابهم الرثة المتسخة.. ورائحتهم التي تزكم الأنوف؛ بسبب الدماء التي جفت على أجسادهم، ومنعهم من الاستحمام أو حتى من غسل وجوههم..

فجأة؛ أشرقت عيناه الحمراوان؛ بعد أن قرر النقيب فلاح استخدام أساليب تقليدية، ولكنها تظل مؤثرة وهو يخاطب نفسه:

ـ هذا الرجل قوي.. لكن نقطة ضعفه عائلته.. وأفعلهم في نفسه بالطبع أصغرهم..

تحول ببصره إلى علي الذي لم يتجاوز السابعة من عمره إلا قليلاً، وهتف متمتماً:

ـ هذا الإبن الوحيد للمجرم الهارب أحمد.. فلنر يا عبد الرزاق الكلب كيف تبقى صامداً..

هب عن كرسيه، واتجه صوب الصغير، فقبض على ذراعه الدقيقة كعيدان القصب، وجذبه عن أمه، فتمسكت به، وهي تنظر في وجه النقيب نظرات أسى وخوف

وتوسل، وبصوت تهدج بالهلع على مصير وحيدها. خاطبته مستعطفة:

ـ أرجوك يا أستاذ.. إنه صغير لا شأن له في ما نحن فيه.. أتوسل إليك.. اتركه لطفولته البريئة.. خذني عوضاً عنه.. خذني أنا رهن إشارتك.. عذبني.. اقتلني.. ودعه.. أرجوك..

وصرخ علي مذعوراً، وهو يتمسك بأذيال ثوب أمه:

ـ ماما.. لا تتركيني.. هذا الرجل يخيفني.. ماما..

بيد أن النقيب اختطف الطفل من بين ذراعي أمه:

ـ السيد الرئيس منع دخول الرحمة إلى أجهزة الأمن والمخابرات.. لا طفل.. ولا عجوز.. ولا شاب.. ولافتاة.. الكل سواسية.. مجرمون.. جواسيس.. عملاء.. جماعة الدعوة.. بشرفي سنسحقكم كالنمل.. أولاد العاهرات.. يريدون أخذ الحكم منا!

وأطلقها ضحكة مجلجلة تستبطن كل ألوان التهديد والتشفي والغضب.. والخوف في الوقت نفسه.

وعادت الأم إلى استعطافه ذارفة دموعاً حرى، وهي تصرخ في وجهه بلوعة وألم وهي تتلعثم:

ـ والله يا أستاذ نحن لاشأن لنا بهذا. ولكن.. نعم..

الحق معك.. انا مجرمة وجاسوسة ومن جماعة الدعوة وأستلم أسلحة من إيران.. وليس هذا الطفل البريء. كلا.. كلا.. بالله عليك.. اترك صغيري.. أرجوك.. لا تعذبه.. إنه وحيدي في هذه الدنيا.. استحلفك بأطفالك.. دعه وعذبني مكانه..

ـ ليس لدي أطفال يا (...) ليس عندي أحد.. عندي مجرمون فقط..

قالها بتهكم، وأعاد شتم المرأة الملهوفة، الحامل، ودفعها بقوة، فأسقطها على ظهرها أرضاً. وأشار بيده، فأنهضوها، وأوثقوها إلى الجدار، فحالوا بينها وبين ولدها، وهي تصرخ زاعقة من ألم السقطة، ومن ألمها على صغيرها.

قام أحدهم بعد أن أشار إليه النقيب؛ بتمزيق ملابس الطفل، وتعريته من ثيابه بالكامل، ثم أوثق له يديه وقدميه بالسلاسل، وهو يتلوى بين يديه مرتعداً من الرعب، ويصرخ:

ـ ماما.. لا تتركيني.. سأموت خوفاً يا أمي.. يا جدي.. يا جدتي..أنقذوني من هذا الوحش المرعب..

ومع ثاني هراوة انهالت على جسد علي البض الرقيق؛

انهارت ياسمين، ولم تتمكن من ضبط لسانها، فهتفت بالنقيب صارخة:

ـ لا.. أرجوك.. لا تضربوا ولدي.. سأعترف.. سأدلكم على مكان وجود زوجي أحمد حالاً.. أقبل قدميك يا أستاذ.. أتركو ولدي..

استبشر وجه النقيب، فابتسم ونظر إلى رجاله متباهياً بنجاح خطته فبادلوه النظر، وهم مسرورون.

بيد أن شيماء رفضت موقف ياسمين هذا، فهتفت بها معترضة ناهرة:

ـ لا تكذبي يا مرأة.. وتتورطي ورطة جديدة.. وتورطينا بلسانك.. أنت لا تعرفين أين أحمد.. ولا أحد منا يدري بمكان وجوده.. لا تكذبي.. من اين لك أن تعرفي!؟

فصفعها أحدهم وأدمى فمها زاعقاً بها:

ـ أنت اخرسي يا بنت الحرام.. شأنك فيما بعد.. سترين.. ساقص لسانك الطويل هذا..

أما ياسمين، فإنها لم تعد ترى شيئاً سوى ابنها العاري الموثق بالسلاسل، والمضمخ بالدماء، ولم تعد تسمع غير صراخه الذي يفتت كبدها، فتابعت ما كانت بدأته من الكلام، وقالت:

ـ أحمد هرب إلى إيران.. إنه الآن هناك.. نعم.. لم يعد زوجي في العراق.. لقد ذهب إلى إيران..

وأسقط في يد النقيب، ومعه فريق التعذيب.. أيصدقونها؟

ـ هكذا إذن!.. هرب إلى إيران قلت، وأنا أصدقك..

قال النقيب متهكماً بضحكة صفراء، وكأنه لم يصدقها، فأوغلت بالبكاء، وعادت إلى تأكيد قولها:

ـ أقسم بالله.. إنه الآن في إيران، لقد أرسل لنا رسالة.. قبيل هروبه.. وأخبرنا بالأمر..

فقاطعها أحدهم:

ـ وأين الرسالة الآن؟..

أجابته مؤكدة:

ـ لقد مزقها عمي أبو عادل فوراً.. بعدما قرأتها شيماء.. أطلقوا طفلي..

ازداد حنق النقيب وعناصره، وأحس أبو عادل أنه أصبح في ورطة جديدة، حيث إن ما قالته ياسمين سوف يكلفهم كثيراً، وقد صدق في حدسه، إذ التفت إليه النقيب وخاطبه بلهجته المعتادة، المليئة بالتهديد:

ـ هكذا إذن أيها الخنزير الخائن.. تتستر على العملاء،

وتكذب علينا! لا بأس عليك.. يا عبد الرزاق الـ (...).. سأريك نجوم السماء في رابعة النهار..

انهالوا عليه بالضرب والركل والصفع واللكم، معملين في أنحاء جسده الهراوات والأحذية والأيادي والقبضات.. حتى حولوه إلى كتلة من اللحم المعجونة بالدماء، موثقة إلى ذلك المقعد الذي انقلب به إلى الأرض مراراً.

لقد كانت شيماء الوحيدة القادرة على الصراخ؛ فالحاجة حليمة على حالها.. شاردة.. لا تعي مايدور حولها.. ولا يسمع منها الا كلمات لايفهمها الا من عاش مأساتها. أما ياسمين؛ فكانت تحتضن صغيرها وترتعد بشدة، وقد أغمضت عينها كي لا ترى، وتتمنى أن لا تسمع..

بعد لحظات من الصمت الرهيب؛ فيما كان النقيب يفكر، ويتأمل، ويشعل سيجارة من سيجارة، بلا انقطاع، عاد إلى الكلام معتمداً اللهجة الأخف حدة:

ـ اسمع يا عبد الرزاق.. أيها الوغد.. بالنظر إلى كون قضية أحمد في غاية الأهمية بالنسبة لنا، سأمهلك أسبوعين فقط، بدءاً من الغد؛ أسمح لك خلالهما.. من داخل المعتقل.. بالاتصال بأقاربك.. باصدقائك.. بأصدقاء ابنك المجرم.. بجماعته.. لا أدري!.. تطلب منهم أن يأتوا به..

إذا كان هنا.. إذا كان لم يزل في العراق.. أو يأتينا هو بقدميه.. إذا كان عند أسياده في إيران. بالمقابل.. نطلق سراحكم. أما إذا لم يعد خلال المدة المحدودة.. الويل لكم إذا لم يعد ليسلم نفسه.. سآكل من لحومكم.. أفهمت؟..

أجابه أبو عادل متمتماً، وهو مدل برأسه، غير قادر على رفعه:

ـ ولكن.. هذا الكلام غير معقول!.. كيف يتحقق؟.. لا سبيل إلى الاتصال بأحمد.. لا نعرف إذا كان وصل إلى إيران.. أم لا.. ولا أحد يدري له عنواناً.. إذا كان وصل..

فصفعه النقيب صفعة، ألوت رأسه على رقبته المتهالكة؛ مقاطعاً إياه:

ـ معقول، وزيادة يابن الزانية. خلاصة القول.. سواء أكان ذلك الوغد في العراق.. أم في إيران.. يجب أن يسلم نفسه مع الوثائق!.. وإلا.. أنت أعلم بالمصير الأسود الذي ينتظركم..

فعاود أبو عادل الكلام، وهو يلحس الدماء عن شفتيه المثلمتين:

ـ بالله عليك.. قل لي ما ذنبنا نحن؟!.. ما ذنب هذه العجوز المسكينة؟!.. وهذه المرأة الحامل؟!.. وتلك الفتاة

البريئة؟!.. وذلك الطفل الذي لا يدري من الدنيا شيئاً؟!.. ما ذنبنا نحن إذا كان ابننا مجرما وجاسوسا وعميلا؟!.. هل يصح في عرفكم أن تحملنا وزر غيرنا؟..

أمسك به النقيب من شعره، وراح يهز رأسه بعنف، وكأنه يدلي إليه بمعلومة جديدة، مزمجراً:

ـ إنه ابنكم أيها السافل!..

فقاطعه أبو عادل بحزن:

ـ فما ذنبنا نحن.. إذا كان ابننا مجرماً؟!..

فعاد النقيب إلى الزعيق قائلاً:

ـ قلت لك.. ذنبكم جميعاً أنه ابنكم.. فرد من عائلتكم.. وقانوننا ينص على أن ما يقوم به الفرد من عمل معادٍ للحزب والثورة؛ ينسحب على باقي أفراد عائلته وأقاربه.. حتى الدرجة الثالثة.. وهذا له أيضاً علاقة بدرجة التعاطف مع الأبناء..ونحن نعرفكم جيدا يا عملاء.. أنتم تتعاطفون بشدة مع أولادكم المجرمين.. ومع أفكارهم.. ومع أعمالهم الإرهابية.. بل ولديكم ذات الأفكار القذرة.. أليس كذلك يابن الزانية؟..

وإزاء صمت أبي عادل، استأنف النقيب كلامه، وهو يصرخ:

ـ قلت لك أليس كذلك يابن الزانية؟!.. والأنكى أن لديكم ثلاثة خونة مجرمين وليس واحداً.. صلاح وعادل وأحمد.. ويبدو أن شيماء هي منهم أيضاً.. ياويلكم ياخونة.. ياويلكم..

وأخذ ينظر إلى شيماء نظرة تحرش، ثم انفجر بضحكة طويلة ومتقطعة، شاركه فيها عناصر فريقه.

## ٢٨

استمر الجدال غير المتكافىء بين النقيب فلاح والسيد عبد الرزاق؛ فقد بقي الثاني ينفي بشدة إمكانية تحقيق مايطلبه النقيب فلاح، وكان يقول له على الدوام إثر عمليات التعذيب، بحزم وثقة:

ـ الأمران ليسا بيدي.. والله العظيم ليسا بيدي.. لو كانا بيدي لنفذت ماتريد وانقذت ماتبقى من عائلتي..

كان النقيب يصر على تسليمه أحمد والوثائق، ويتوعده جازماً:

ـ سانتزع أحمد من قلبك.. وقلوب أفراد أسرتك.. ومن أرواحكم جميعاً.. سيخرج إلي أحمد.. والوثائق..

وكانت شيماء تتدخل أحياناً بإسلوبها الانفعالي البسيط؛

في محاولة منها لإنقاذ أبيها، لكنها كانت تثير غضب النقيب بشدة؛ فكان لا يتردد في الاعتداء عليها بأغلظ الضرب والشتم، ويهددها بأقذع الألفاظ بالاعتداء عليها جنسيا. لذلك كان أبوها يطلب منها بصوت عال أن تركن إلى الصمت:

ـ شيماء.. يا بنيتي.. هذا ليس من شأنك.. اسكتي.. لا علاقة لك بالموضوع.. لا تنطقي بحرف.. إلا حين تسألين..أرجوك..

ومرة إثر ضرب النقيب لها بالهراوة على رأسها؛ وكاد يغمى عليها..

ـ سيدي.. رويدك.. إذا خنقتها.. سيذهب معها ما لديها من معلومات..

قال ذلك أحد مساعدي النقيب. وأضاف آخر بعدما رأى ابتسامة الرضى، تعلو وجه النقيب:

ـ والأنوثة والسحر.. تذهبان أيضاً.. سيدي..

هتف بها أبوها، ونهرها صارخاً بها:

ـ قلت لك اصمتي.. إن كلامك سيقتلنا كلنا.. إفهمي..

فنال من أحدهم رفسة برأس حذاء، اجتثت بعض أسنانه، وملأت فمه دماً..

كان أبو عادل يرى أن طلب النقيب لا يعني شيئاً سوى تصفيتهم جميعاً، لأن الاتصال بأحمد، والطلب منه تسليم نفسه، والكشف عن مكان اختفاء الوثائق، كلها أمور يستحيل تحقيقها، فكان يحاول إقناع النقيب بكل الطرق للعزوف عن ذلك الطلب المستحيل.

مرة استجمع ما استطاع من قواه العقلية المشتتة، والجسدية المتداعية، وقال بكل لين واتزان ومواربة:

ـ حضرة النقيب.. أنا أفهم حساسية موقفك إزاء رؤسائك.. فأنت محرج منهم، وسيتهمونك بالعجز والتقصير. وأنا من واجبي الوطني تسليم أحمد؛ لأنه اعتدى على الدولة، وإعادة الوثائق، لأن وقوعها في يد العدو يمس بأمن الوطن وسلامته.. لكني والله لا أمتلك اي وسيلة أستطيع من خلالها تنفيذ ما يجب علي.. ماذا تفعل لو كنت مكاني؟.. قل لي..

إلا أنه ـ في الحقيقة ـ كان في وادٍ، والنقيب في وادٍ آخر.

لما أحس النقيب فلاح بفشله في إخضاع السيد عبد الرزاق لطلبه، شمر عن ساعديه، لتنفيذ ما كان دار في

رأسه، ولم ينجزه المرة الفائتة.. اتجه صوب علي، الطفل، بعد أن وجه كلامه لأبي عادل حاسماً الكلام:

ـ يا عبد الرزاق.. يابن العاهرة.. الكلام لا ينفع معك، طيب.. سأريك مدى جدية تهديداتي. وهذه أولى نتائج رفضك، وعنادك..

ثم وضع يديه على رقبة علي الدقيقة، وضغط عليها بقوة، كأنه يريد أن يخنقه، فيما كان صراخ الطفل يتعالى متقطعاً، ويشق الأرجاء وهو ينادي أمه وجده باستعطاف لينقذاه:

ـ أمي.. لا تتركيني.. أرجوك.. آه.. يا جدي.. تعالى إلي.. آه..

لم تكن العيون تصدق ما تراه، حتى أن أبا عادل تصور أنها مجرد مناورة وتهديد، فهتف بالنقيب:

ـ ماذا تفعل أيها المجنون؟! أترك الطفل.. اتركه.. فإنك تكاد تخنقه!

وأخذت أم علي تستعطفه باكية بأرق الكلمات، وهي تشاهد بأم عينها كبدها يتفتت شيئاً فشيئاً:

ـ أرجوك.. أقبل حذائك.. سيدي.. لا تقتل إبني.. لا..

وكان صوت النقيب يدوي جارشاً:

ـ سأخنقه، وأخنقكم معه.. سأكوي قلوبكم به.. سأفجعكم بموته..

قالها، وهو يحدق بعينيه المجمرتين برقبة الطفل التي أخذت تلين تحت أصابعه القاسية متأرجحة برأسه الصغير، يمنة ويسرة..

أخذ الطفل الصغير ينتفض كالطير المذبوح، بعد أن خبا صوته، ويطلق يديه الصغيرتين، وساقيه الركيكتين كيفما كان، وتكاد حدقتا عينيه أن تخرجا من محجريهما، وقد احتقن وجهه البريء بحمرة الدم المتخثر..

هنا صاح جده بلهفة ووجل، وهو يشهق كالمرأة التي أدركها ألم المخاض:

ـ اتركه يا مجرم.. سأفعل كل ما تريد.. سآتيك بأحمد وآتيك بالوثائق.. اترك الطفل.. يا (حرملة)..

بينما كانت أم علي تتابع استصراخ السماء، وتتلوى، وتحاول تحطيم السلاسل، لعلها تصل إلى فلذة كبدها، وهي في ذهول وهلع، تصرخ مولولة:

ـ حبيبي علي.. بني علي.. لا عشت بعدك طرفة عين.. رباه.. رباه.. متى غضبك؟.. متى انتقامك؟

إلا أن النقيب لم يأبه لكلامها، بل تابع فعلته، وأخمد أنفاس علي، ولم يتركه إلا جثة بلا روح..

طمست حمرة وجهه بزرقة واسوداد، وجحظت عيناه الخضراوان، كأنهما تريان ما لا قدرة لعين أن تراه، فغر فاه، وقد سال دم قانٍ على حافة ذقنه الصغيرة، وتراخت أوصاله، وتفككت مفاصله، فتأرجح بين كفي النقيب السميكتين في كل اتجاه، فأرخاه من يده ليسقط أرضاً، ويتجمع على بعضه، كأنه خرقة مهترئة رميت من علٍ..

وإذا بأحد مساعدي النقيب هب من وقفته، وقد سرت في جسمه النحيف رعشة عنيفة، وضع كفيه على وجهه، وأخذ يبكي.

ودون أي كلام، أشار النقيب على بقية مساعديه؛ فأخرجوا رفيقهم الذي ضعف من الغرفة، ليقول بعد ذلك:

ـ الضعف هو بداية الخيانة.. سترى ياجبان

أما ياسمين، فقد أغمي عليها فيما كانت تتمتم، قبل أن تراه كزهرة ذابلة، جثةً هامدة بلا حراك:

ـ إلى أين يا صغيري؟.. يا وحيدي.. يا حبيبي..

قتل علي خنقاً بيد النقيب، وهو الذي كان مدلل الجميع، والفراشة الملونة الجميلة التي تملأ البيت بهجة ومرحاً.

لم يعد أبو عادل يملك شيئاً سوى الدعاء، وذكر الله، فقط. وقال بعد أن جمدت دموعه، وعزت عليه:

ـ لا كانت لحظة.. رأيتك فيها يا علي.. يا حبيبي.. هامداً أمام عيني. في ذمة الله يا حفيدي.. وتحت أجنحة رحمته..

فيما بقيت أم عادل على وضعها.. صامتة لا تفقه شيئاً مما يجري، منذ مصرع ياسر.. ولم تزل..

لكن شيماء، كانت أشبه بالثورة المتأججة، بالبركان المتفجر، وهي تشاهد ابن أخيها الوحيد قتيلاً، فاختلطت صرخاتها مع صدى ضرباتها العنيفة للجدار برأسها:

ـ يد الله فوق أيديكم.. يا ذئاباً نتنة.. يا كلاباً مسعورة..أتكتبون سطوراً في الولاء.. لرئيسكم القذر.. بدم الطفولة المسفوح. لا يكفي شرهكم إلى ارتشاف الدماء دم علي.. هاكم دمي يا قتلة.. فخذوه. لكن.. لا يسد عطشكم إلى الدماء البريئة.. دماء كل أطفال الدنيا.. لأن عطشكم في ضمائركم.. وفي مبادئكم. انتصرت يا مجرم على هذا الطفل.. لكن دمه سيهزمك.. وسيبقى يقض مضجعك.. ومضاجع من وضعك هنا..

كانت هذه الكلمات كافية لتستحيل شيماء إلى كتلة من الدماء.. حتى أغمي عليها..

# ثمن الحياة

## ٢٩

استمرت ياسمين تحدث زوجها بما جرى لها ولأهله، وقد آلمهما جداً، ما كانت ترويه، ولا سيما فقدان ولدهما الوحيد علي وشقيقه ياسر وما أصاب أمه. كانت الدموع الحارة تنساب على خدودهما، حيث قال أحمد، ويكاد يذهب بعقله الهذيان:

ـ لماذا لم تخبروني بأي طريقة.. لكنت سلمت نفسي..، وأنقذتكم؟

* * *

خلال فترة الأسبوعين التي فرضها النقيب فلاح؛ اتصل أبو عادل ببعض أقاربه وأصدقائه وأصدقاء أحمد، وكان يطرح عليهم موضوع الاتصال بأحمد، إذا كان لدى أحدهم من وسيلة لتحقيق ذلك، رغم أنه كان غير مقتنع أصلاً بما يفعله، بل كان على يقين بأن ذلك الأمر أشبه بالخيال، لكنها تلك إرادة المخابرات التي استهدفت من كل ذلك

«ضرب عدة عصافير بحجر واحد».. محاولة الوصول إلى أحمد والوثائق، والانتقام من عائلة أبي عادل، فالأخير كان يفهم أن جزءاً كبيراً مما يقوله النقيب فلاح، ما هو إلا ذرائع وحجج؛ فتصفيتهم نهائياً كانت تشكل أحد الأهداف التي رمت المخابرات إلى تحقيقها بأي ثمن.

معظم من اتصل بهم السيد عبد الرزاق كانوا يقطعون الاتصال فور سماعهم صوته، أو بعد أن يعرفوا بالموضوع، بل إن بعضهم كان ينهره ويطلب منه عدم الاتصال ثانية؛ خوفاً من السلطة، وكي لايورطوا أنفسهم في قضية خطيرة تودي بهم إلى الهاوية، ومن يمتلك الشجاعة كان يعتذر بأدب مبدياً أسفة وعدم معرفته بشيء.

كان رجال المخابرات يستمعون إلى الاتصالات ويسجلونها؛ علهم يعثرون على رأس خيط.. ولكن دون جدوى..

انتهى الأسبوعان..هيأ أبو عادل نفسه للمصير الذي انتظره.. الموت، وهو ماكان يتمناه؛ للخلاص من وضع أصعب بكثير من الموت.. أفراد عائلته.. من بقي منهم.. لذلك المصير، حيث حادث النساء الثلاث خلال التقائه بهن، لمرة واحدة عن حقيقة الوضع، وإن الموت أرحم. كانوا يجلسون على بساط متهرئ افترش جزءا من الأرض

الحجرية العارية لإحدى غرف التحقيق، وهي غرفة لاتختلف عن غرف التعذيب، سوى أن وسائل التعذيب أقل عدداً وأبسط في تقنياتها، وأن المصابيح فيها أكثر نوراً، ونوافذها أوسع، لكنها توحي بالرعب والرهبة ذاتها:

ـ هيئن أنفسكن للرحلة التي سيرسلنا فيها هؤلاء الوحوش.. حتى يفتت كبد واحدنا على الآخر.. لقد انتهت المهلة، ولن يلبثوا حتى يطلوا علينا بأنيابهم وبراثنهم. نحن في نواظرهم عوائل خائنة.. وباء خطر. لهفي عليك يا شيماء.. يا بنيتي.. وددت لو أقبل رأسك قبل افتراقنا.. ها قد جاؤوا.. وداعاً..

سحبوه بعنف مما تبقى من ملابس عليه. وكان قد أضمر في نفسه أن يصمد ولا ينهار أبداً؛ بعد أن أتعبته رحلة التعذيب القاتلة واستباحة الكرامة والاعتداء على عرضه؛ عل هذا الصمود يحمل النقيب فلاح على إعدامهم!

لم تشعر العائلة طوال ذلك الأسبوعين بجديد يربطها بالحياة في هذا العالم الموحش.. سوى أن التعذيب الجسدي قد انخفض إلى مستوى أدنى.

كانت ياسمين تقول على الدوام.. وكأن قلبها تقتلعه صورة علي التي لاتفارقها:

ـ بعد فلذة كبدي علي.. لم يعد لي ما يربطني بهذه الحياة الشقية.. وأيامها السوداء. وفي ظني.. أن هذا الجنين القابع في أحشائي لن يبارحها أبداً.. ولن يلقاني وألقاه..

ردت شيماء بلوعة وألم وهي تسير إلى حتفها:

ـ لم أعد أطيق الانتظار.. لقد سبقني علي.. إلى لقاء ياسر.. وصلاح.. ولعلهم جميعاً بانتظاري.. لا قيمة للإنسان هنا.. هو في نظرهم حشرة ضارة.. بل دون ذلك بكثير.. الموت أقل عدماً وفراغاً من هذا العالم الوحشي.. قريباً سيدعوننا إلى التحقيق.. من يا ترى سيموت قبل الآخر.. ليتني أكون أنا؛ فلا أرى أحداً من أهلي يموت أمامي..

صباح ذلك اليوم، فتح باب زنزانة السيد عبد الرزاق الانفرادية بقوة، وإذ بوجه ألفه أبو عادل طوال أيام خلت، يهتف به:

ـ عبد الرزاق..انهض واتبعني.. انهض.. هيا.

خفق قلب أبي عادل رهبة، فنهض من على الأرض التي كان يفترشها، وانطلق خلفه بصمت، وهو لا ينظر إلا إلى أخمص قدميه.. من شدة الإعياء..

سارا في الممر الطويل الذي حفظه؛ لكثرة ما مر عليه،

ثم نزلا عشرات الدرجات الحجرية، حتى توقف به الرجل عند باب طرقه بلطف ودخل. أدى التحية وهتف:

ـ سيدي النقيب.. عبد الرزاق..

وانصرف.

قال أبو عادل وهو ينظر حوله، يخاطب نفسه بلسان الصمت:

ـ يا الله.. استر على عبدك الضعيف وعلى النسوة المظلومات معه.. النقيب فلاح مرة أخرى.. وأمامه ملف التحقيق.. يتصفح الأوراق ويهذي بشتائم.. هو بالتأكيد مخمور حتى الثمالة.. إرحمني يا الله.. والطف بعائلتي الشقية.. إنه ينظر إلي شزراً.. كالذئب الجائع.. يحدق في فريسته قبيل اقتناصها..

أومأ النقيب برأسه إلى اثنين من عناصره الموجودين في الغرفة، فاقتادا أبا عادل، وأوثقا يديه إلى الخلف، وشداهما إلى الجدار، دون أي كلمة.

وفجأة وقف عن كرسيه مترنحاً من السكر، وهتف:

ـ اصغ إلي يا عبد الرزاق.. لا داعي لأن أقول لك إن المهلة قد انتهت، وليس ضرورياً، أن تقول لي إنك فشلت في المهمة:

فأجاب أبو عادل بشيء من رباطة الجأش:

ـ نحمد الله ونشكره على كل حال.. كان كل شيء يجري تحت سمعك وبصرك..

ـ لكني أذكرك بما قلته لك قبل أسبوعين، وكررته عدة مرات.. أذكرك بالمصير الأسود الذي ينتظرك.

ـ لم يعد لدي ما أخاف منه.. إفعل ما بدا لك.. وسيحكم الله بيننا وبينكم يوم الحساب.

ـ إخرس يابن الفاجرة.. أتهددني بتلك الخرافات؟..

ووجه بيمناه لكمة قوية أدمت وجهه، ثم استأنف حديثه، وقد لعبت الخمرة برأسه:

ـ أقول لك شيئاً واحداً.. وقدر أنت ما يضمره لك قلبي. لقد كنت موعوداً بمكافأة إذا نجحت في هذه القضية، أما وإني الآن قد ظهرت أمام السيد مدير الشعبة بمظهر المحقق غير الكفؤ.. بعد أكثر من ثلاثة عشرعاماً من الخدمة في المخابرات، فإنني سوف أشفي غليلي منك ومن عائلتك، وسترى ما سأفعله بكم، لأنكم أصبحتم سبب حرماني من تلك المكافأة، والترقية التي ترافقها..

ـ لا إله إلا الله.. أي تعسف وظلم هذان؟!.. إذا فعل أحد أولادنا ما يخالفكم.. فنحن الذين نتحمل المسؤولية..

وإذا شنت إيران هجوماً على الجبهة.. نكون نحن الضحية.. وإذا قام بعضهم بعملية مسلحة.. فنحن الذين نتعرض للعقاب.. وإذا اختلفتم فيما بينكم.. تنتقمون منا..

فعاود النقيب القول بصوته الداوي، وهو يهذي:

ـ وأكثر من هذا يا وجه النحس.. إذا تشاجرت مع زوجتي.. سأفرغ فيكم كل مشاكلها وعقدها..

لكن أبا عادل تصدى له بلهجة حاسمة:

ـ تباً لكم.. ليس فيكم من الآدمية شيء.. أنتم وحوش غاب.. وحتى الوحوش تتبرأ منكم.. الدرك الأسفل من جهنم مستقركم وقبل أن يجزيكم الله في الآخرة.. فإنه سيقر عيون المؤمنين بفضحكم في الدنيا.. وبخزيكم.. والانتقام منكم.. فتباً لكم..

فعاد النقيب إلى الكلام بأشد ضراوة، وأكثر هذياناً:

ـ خذ أيها الخنزير.. اللعنة على شواربك وعلى أبيك.. وأمك الـ (...).. خذ.. خذ.. سأحطم رأسك بحذائي.. على من تتطاول.. وإذا تنفست بكلمة بعد.. سأفقأ عينيك بإصبعيّ هاتين.. وأقطع لسانك.. يا كلب ياجاسوس ياعميل. قسماً بشرف الحزب.. وبرأس السيد الرئيس.. بأنني سأذبحكم.. واحداً واحداً.. أيتها الحشرات الضارة.. يجب أن تمحوا عن

وجه الأرض.. أنتم أيها المتدينون.. جماعة الصدر والخميني.. لا بد أن تزالوا عن آخركم من الوجود..

وبقي يشتم، ويضرب، حتى أنهكه التعب، فيما كان أبو عادل يتمايل موثق اليدين والقدمين إلى الجدار. ولما استبد به الإرهاق والاضطراب، أمسك به مساعدوه، فأجلسوه على كرسي قريبة، وهم يهدئون من ثورته حفاظاً على سلامته من الانهيار تحت تلك النوبة العصبية الهائلة، حيث هتف به أحد مساعديه بتملق:

ـ هدىء من غضبك يا سيدي، إن صحتك أهم مليون مرة من هؤلاء المجرمين.. الحشرات، ارتح قليلاً.. استعد أنفاسك.

ولما لم يجدوا وسيلة لتهدئته، وهو لا يكاد يستقر على الكرسي، قدم له أحدهم كأساً من الخمر، وقرصاً مهدئاً، وقال آخر له:

ـ قسماً بشرف الحزب يا سيدي.. لو أشرت لي فقط بإصبعك.. لقطعتهم لك إرباً إرباً. وأرحتك منهم.. هم لا يستحقون منك كل هذا الاهتمام والتعب.. هؤلاء أولاد العاهرة..

وأومأ الآخرون بالموافقة على كلام زميلهم أيضاً،

ورفعوا سواعدهم شادين عضلاتها، ونفخوا صدورهم، ليرى قدرتهم على تنفيذ ما قاله زميلهم..

وقبل أن يتكلم أحدهم من جديد.. زعق بهم النقيب:

ـ دعوكم من هذا الكلام الفارغ.. أنتم لا تفهمون ما هؤلاء.

ثم نهض من مجلسه ثانية، بعد أن احتسى كأساً أخرى من الخمر، وعاد فقبض بيديه على رقبة أبي عادل الذي اصطبغ وجهه بالدماء، وتمزق مابقي من ملابسه، فأفسحت عن صدره المزركش بأشكال الخدوش، وأصناف الرضوض، فقال له بلهجة صارمة، لكن بصوت أقل انفعالاً:

ـ إصغ لي جيداً يا عجوز الشؤم.. إن موتك سيكون على يدي هاتين.. هذا مما لا شك فيه.. وعد مني..

ودوى صوت أبي عادل يتفجر نابعاً من أعماق الألم:

ـ إفعل ما بدا لك.. أنت وزبانيتك..

فعاد النقيب إلى الزعيق صارخاً:

ـ قلت لك إصغ لي.. يا حيوان..

وصفعه على وجهه، ثم استأنف كلامه بلهجة فيها الكثير من التشفي:

ـ وقبل أن أفعل بك ذلك، يسرني كثيراً أن أتلذذ بمنظرك وأنت تصرخ كالمرأة التي تعسر بها مخاض الولادة.. وتتلوى كالحية من الألم. دعني أبوح لك بسر كبير يهمك كثيراً.

وأجاب السيد عبد الرزاق بصوت واثق النبرات:

ـ سبق لي أن أفهمتك أيضاً.. ويبدو لي أنك لا تفهم، لقد بينت لك بأني لم أعد أهتم بكل ما يجري لي.. ولا لأفراد عائلتي.. كفانا أننا سالكون بعين الله.. إنه عليم بنا.. يرى ما نتعرض له من الظلم.. وأنا سائرون على خطى جدي الحسين..

فعاد النقيب ليقول غير عابىء بما سمع وهو يسب الحسين:

ـ اللعنة عليك وعلى (...). هكذا إذن!.. أنت لا تهتم.. أود أن أرى لامبالاتك أيها العجوز الخرف..

وانفجر بضحكة متصنعة، تبعه فيها عناصره. ثم اتجه، ليجلس على الكرسي المقابل لأبي عادل، وغمز بطرف عينه اليمنى الأشد حمرة، إلى أحد مساعديه، وهو يقول بتهكم:

قل له عما جرى لابنه الأكبر، فلذة كبده.. الدكتور عادل.. وزوجته.. وولديه.

هيا أخبره بسرعة..

فأومأ ذلك الرجل العريض المنكبين، ذو العينين اللامعتين ببريق أحمر، قائلاً:

ـ حاضر سيدي..

وكأنه كان ينتظر ذلك الأمر، فاقترب من أبي عادل، وأخذ يمثل دوراً ساخراً، فقال بتأن:

ـ يا سيد عبد الرزاق.. أنت إنسان صابر.. وقلبك عامر بالثقة فأرجو أن تتمالك أعصابك!.. خاتمة السوء..

فصرخ به النقيب ناهراً:

ـ قل له إنها بادئة السوء يا غبي!..

فعاد الرجل إلى متابعة حديثه بذات اللهجة:

ـ نعم نعم سيدي.. هو كذلك.. أعزيك يا أستاذ عبد الرزاق بمقتل ولدكم البار الدكتور عادل وزوجته وطفليه هشام وآمنة في مجزرة جماعية داخل المعتقل..

وما أن انتهى من حديثه، حتى انفجر بضحكة هستيرية هوجاء، وضحك معه زملاؤه؛ في حين كان النقيب، ينظر نظرة تشف إلى أبي عادل.

أما أبو عادل، فقد أحس بالانهيار، وكاد قلبه اللاهب يتوقف. ولكنه عض على الجرح الغائر.. وقضم شفتيه بقوة، وأصر على ألا تذرف عيناه، حتى دمعة واحدة. هكذا دعا الله أن يلهمه صبر أيوب..

وأخذ يتمتم بخشوع، ووجع لا حدود له:

ـ رحمة الله عليهم.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. ذاك هو طريقنا الدامي.. إنه أمر ليس جديداً علينا.. ولا عليكم. أنتم أحفاد أبي لهب.. ويزيد.. والحجاج.. ونحن أحفاد محمد.. وعلي.. والحسين..

وكانت رباطة جأشه في تلقي الخبر.. صدمة عظيمة للنقيب وأعوانه، حيث كانوا ينتظرون انهياره على وقع ذلك الخبر المريع..

## ٣٠

استمر الكابوس.. يجرف الأيام، فتتكسر على ضفاف اللحظات، محدثةً أصداء، تضيع في سكون المدى.. وفي طوايا الخبر.. استمر بكل ضراوة على أبي عادل والثلاث الثاكلات المتبقيات من أفراد عائلته..

لقد أحالهم ذلك الزمن إلى أناس، لو شاهدوا صورهم،

لما عرفوها إلا بعد تمعن واستدراك، لكن أحداً منهم لم يشاهد وجهه منذ شهور، وقد لا يشاهده أبداً، فلا مرايا في مراكز المخابرات، ولا ينابيع صافية، تعكس سمات الوجوه..

بات عالم كل منهم، زنزانة أشبه بقبر، لا لون لها، ولا نافذة، ليس فيها غير حصير رث، وغطاء بالٍ، ومصباح أصفر خفيف الإنارة في أعلى الزنزانة، وباباً حديدية محكمة الاقفال. لا يشارك النزيل في الزنزانة سوى وعاء صغير للماء، وآخر نتن يقضي فيه السجين حاجته..

كل الأبواب تؤدي إلى ذلك الممشى العريض الطويل، الذي تشح فيه الأنوار، حيث لا نوافذ، ولا شبابيك، ولا فتحة نحو الشمس والسماء..

في ركن آخر حمامات قذرة، ضيقة، ماؤها بارد أبداً، يسمح بارتيادها مرة كل أسبوعين لنزلاء الدرجة الأولى وكل شهر لنزلاء الزنزانات الانفرادية، حيث يستحمون بماء عفن بلا صابون، ويعيدون ارتداء ثيابهم ذاتها، الثياب التي ارتدوها منذ أول دخولهم إلى ذلك العالم..

في ناحية أخرى، باحة صغيرة المساحة، تجمع بعض النزلاء، مرة واحدة في الأسبوع؛ لا يتحدثون فيها مع

بعضهم، كأنهم مجاميع موبوءة، أصابها الجرب والخرس والطرش. ولهم حق الوقوف، أو حق القعود على أرضها الحجرية، حيث توزع على الجموع أكواب من العدس الخالي من الملح، وحيناً من العدس المالح جداً، ولكل رغيف مر عليه الزمن، فصبغه ببقع من زرقة العفن، واعترى اليباس معظمه، فكأنه واحد من النزلاء، يتعرض مثلهم للتعذيب اليومي..

لا مناظر في ذلك المكان، لا نبتة، ولا زهرة، ولا طائر. أما القمل، فلا يكاد يخلو رأس منه، وكذلك سمح للجرذان والعناكب وأنواع الحشرات بارتياد كل الغرف متى تشاء..

لا مناظر سوى الوجوه الشاحبة التي اعترتها صفرة وجوه الأموات، وبقع العنف التي لا تبارح زرقتها واسودادها وجهاً واحداً..

ثم مناظر الأجساد الناحلة الضعيفة القوى..

ويضاف إلى تلك الوجوه، وجوه عناصر المخابرات، وبينهم بعض النساء اللواتي تعلو وجوههن سمات الرجال في خشونتها.

لقاءات النزلاء؛ لا تعدو التقاء عيونهم القلقة المذعورة،

إما ببعضها، أو بعيون السجانين التي تكاد أن تكشر عن مخالب من نار في نظراتها..

أما سائر الطوابق الخاصة؛ فعوالم أخرى خارج نطاق ذلك الفلك الدائر.

هذه الحال تسببت في إصابة أبي عادل وأم عادل وياسمين وشيماء بأمراض جلدية؛ ليس أقلها القروح والجرب، عدا عن القمل الذي أصبح الكائن الرفيق الدائم الذي يتعدى شعر الرأس إلى العبث بانحاء الجسم.

أبو عادل تهدل جسمه، لا يكاد يقوى على الوقوف والسير، وقد حطموا نظارته؛ فاختلت حقائق الصور والألوان في عينيه السوداوين اللتين خف بريقهما، وتعلو صفحة وجهه كلمات تنطق بلغة النقيب فلاح وزمرته.. كدمات، وبقع زرقاء، وحمراء داكنة، وسوى ذلك من ألفاظ تلك اللغة الرهيبة.

وأم عادل لا تكاد تصحو من صدمتها؛ فإن أفاقت قليلا.. ولولت وبكت، ولطمت خديها الهادلين.. دون وعي؛ لتعود بعد حين إلى صمتها، وذهولها.. لاتتكلم ولاتجيب على سؤال، وقد غارت عيناها غارقتين في تجاعيد وجهها الشديد الشحوب. أما ثوبها والخرقة التي

تستر شعرها، فقد طمست ألوانهما، حتى لا تكاد تدركها العيون إلا بصعوبة بالغة..

ربما هو طيف حظ.. المديرية احتاجت لزنازين انفرادية؛ فوضعت أم عادل مع ابنتها شيماء وكنتها ياسمين في زنزانة جماعية لاتتسع لأكثر من عشرة نزلاء، ولكنها تضم أربعين أمراة ويزيد.. يفترشن الارض؛ حيث القيام والقعود والنوم بالدور..

اشتد نحول ياسمين، وبدأت الشقوق تعتري ثوبها الأزرق الذي شابه سماءً تتخللها السحب الداكنة الغريبة الأشكال، ويكاد الناظر في عينيها، يرى فيهما رسم علي، وقد برقت عيناه الكستنائيتين، فكأنها اختطفته، وخبأته في بؤبؤي عينيها.

أما شيماء، فقد قاربت أن تكون شبح فتاة جميلة، نحيلة القوام، لشدة رقتها، لكن نضارة عينيها لم تفارقها، ونظرتها لم تزل ثاقبة كنظرة الصقر الجريح.

استمر النقيب فلاح في إملاء طلباته التعجيزية السابقة؛ فذات جلسة جمعهم فيها؛ بدأ بحك رأسه برؤوس أصابع يده اليمنى، وقال ببعض من الهدوء:

ـ اسمع يا عبد الرزاق.. وأنتن يا بغايا.. أريد منكم أسماء

جميع أصدقاء أولادكم العملاء الخونة.. عادل وصلاح وأحمد.. وأن تتعاونوا مع المخابرات في الحصول على المعلومات عن عناصر جماعة العملاء.. وسأعطيكم فرصة لتعيشوا.. سأطلق سراحكم..

في الجلسات السابقة، كان أبو عادل يجادل النقيب في طلباته وعروضه، ولكنه هذه المرة قرر أن يلوذ بالصمت، فلم يعد يتكلم، علماً منه أن لا شيء يجدي.. إنه بانتظار رصاصة الرحمة..

لكن ذلك لم يهدىء من فورة النقيب، خاصة في اقتراحه الأخير بجعل أبي عادل وعائلته جواسيس للسلطة، حيث صمت الجميع؛ إلا شيماء:

ـ جواسيس؟!.. مخبرين؟!.. لانعرف شيئا عن هذه المهنة. نحن أكثر الناس إخلاصاً للوطن؛ ولكن أن نعمل مخبرين ونتسبب في دق أعناق الناس، وتدمير العوائل، وهدم البيوت، وترميل النساء، وتيتيم الأطفال؛ فهذا ليس اختصاصنا..

فنالت ما نالته على كلامها ذاك.. ضرباً وشتائم.. حتى سحلت إلى زنزانتها سحلاً؛ مما زاد في حنق النقيب؛ فهتف بصوت مسموع:

ـ شيماء.. سأقطع لسانها.. وأخرج عبد الرزاق عن صمته.. لنر..

وتوجه إلى عناصره بالقول:

ـ أعيدوا شيماء.. هل ستبقى صامتاً الآن يا عبد الرزاق؟.. لا أكون النقيب فلاح.. إذا لم أجعلك تندم على عدم تعاونك..

سارع ثلاثة من رجال النقيب إلى اقتحام زنزانة شيماء، وهي شبه ميتة، وأمسكوا بها بالقوة، فتعلقت بما لديها من حياة بتلابيب أمها الصامتة التي سمح لها بزيارتها.

جاؤوا بها إلى غرفة التحقيق.. سحلاً.

وقفت شيماء بين يدي النقيب الثمل. لم تزل ترتدي ذات الثوب الذي كانت ارتدته إذ أخرجوها من البيت منذ أشهر. حاولت ستر ما يظهره ثوبها الرث من أنحاء جسدها، الناحل بضمه بأصابعها، وكذا خصال شعرها السوداء التي كانت تتسرب من خروق المنديل الرث، فوقفت بخفر، وارتعاد، تنظر إلى الأرض.. كأنها حمامة بيضاء كسيرة الجناحين.. وذئاب إزاؤها.. وبلهجة متوعدة ماكرة، قال النقيب وهو يعبث بشاربيه المشتعلين شيباً:

ـ والآن.. لير أبوك الشهم.. نتيجة رفضك.. أيتها الساحرة..

حاول أن يعبث بشعرها، ووجهها، بعد أن أمسك بها

اثنان من أعوانه، ولكنها دفعته برأسها عنها، وبصقت بوجهه:

ـ اتركني أيها الوغد.. شل الله يديك.. قلت لك اتركني..

انتفض النقيب ماسحاً وجهه بيده، وأشار إلى أعوانه، فجروها جراً إلى الجدار، وأوثقوها من يديها وقدميها، وهي تصرخ، وتنتفض وتستنجد بالله، وبأبيها المسكين، الذي لم يكن يملك من أمره شيئاً.

حينها هتف النقيب بأبي عادل، وقد تأجج الاحمرار في عينيه، وهو ينظر إلى شيماء:

ـ عبد الرزاق! لم يكن في نيتي أن أخبرك عن هذا الموضوع، ولكن ربما حان وقته الآن؛ بعد أن استنفدت معكم كل شيء. تحقيقاتنا والاعترافات اثبتت بأن ابنتك الـ (...) من جماعة العملاء أيضاً. كان لها نشاطات عدوانية.. في الجامعة.. وخارجها. هذا كافٍ لأن أفعل بها ما أشاء.. أسمعت يا عبد الرزاق؟.. يا (...)؟.. لكنني سأمنحها فرصة أخيرة.. وسأطلق سراحكم؛ شرط أن تنفذ لي ما أريده منها: الاعتراف على نشاطاتها ومسؤولها وأفراد خليتها، وكل ماتعرف عن التنظيم.. ثم الوثائق.. والتعاون معنا؛ لأن

أخاها المجرم أحمد.. لا بد أنه كان يثق بها.. وبالتأكيد أخبرها بمكان إخفاء تلك الوثائق.

بقي أبو عادل ملتزماً بالصمت، أما شيماء فاستجمعت كل ما لديها من قوة، وقالت بحسم:

ـ هذا الكلام هراء وغير صحيح أبدا. هدفك الإيقاع بي وأنا بريئة من كل ماتقول. أما عرضك علي أن أكون مخبرة لكم؛ فهو أمر لن يحصل ابداً.

تلك اللحظة، أعطى النقيب مساعديه إشارة البدء.. فاندفعوا نحوها بشوق.. وبحركات ماجنة. تحلقوا من حولها يتزاحمون عليها، وراحوا يتناتشون ثيابها بأيديهم شداً وتمزيقاً واستلالاً، حتى عروها تماماً من كل ملابسها.. وهي تستنجد بالله ورسوله، وأهل بيته، كما تستنجد بأبيها المسكين الذي لم يكن يملك من أمره شيئاً..

وقفوا ينظرون بعيونهم الشرهة إلى جسدها المرتعد الأوصال خوفاً واستحياء..

كان بكاؤها ينطلق من أعماقها متفجراً، حتى كأن صداه ملأ أنحاء مبنى المخابرات؛ فسرت في أوصال بعض المعتقلين قشعريرة الرعب من حدة صوتها المشحون بالألم

والاستنجاد؛ بعد أن طرق صوتها آذانهم طرقاً موجعاً، لم يعهدوه قبلاً، وهي تصرخ، ولا من مجيب:

ـ أنجدوني.. استروني.. يا ذوي الضمائر.. يا من لكم بنات.. وأمهات.. وأخوات.. لا تتركوني للوحوش.. بالله والرسول عليكم.. أرجوكم..

وبلغ صراخها الزنزانة التي تقيم فيها أمها، مع ياسمين التي أدركت حقيقة ذلك الصوت الآتي من عالم الخفاء مستغيثاً، فبكت وهي تحتضن أم عادل بعطف وحيرة، وتمتمت بلوعة وألم شديدين:

ـ يا ويلي يا شيماء.. ماذا عساهم يفعلون بك.. يا حبيبتي.. يا مسكينة.. مأسورة في قفص الذئاب.. لك الله.. لك الله..لك الله..

بينما لم تكن أم عادل تعلم ما يدور حولها؛ مما كان يزيد من المأساة التي غرقت فيها ياسمين حتى أم رأسها.

جلس النقيب بكل هدوء، يوزع ابتساماته الصفراء على أعوانه. أشعل سيجارته، ونهض باتجاه أبي عادل، الذي كان مطرقاً برأسه، يتمتم بالدعاء إلى الله، أن ينجي ابنته، ويحفظ كرامتها، ويتلو آيات من القرآن الكريم، وغصة البكاء تقطع نبرات صوته:

ـ أنت بعين الله يا ابنتي.. هو مولاك.. وهو راعيك.. وهبتك لله..

وقد أغمض عينيه أسى واختشاء..

أخذ النقيب ينفث دخان سيجارته في وجه أبي عادل، وهو في ذروة حنقه، ثم أمسك به من شعره، وهو يقول:

ـ أرأيت جيداً؟! لماذا لا تجيب؟! أنا أكلمك.. هل تسمعني؟ قلت لك هل رأيت؟.. يا عبد الرزاق؟.. ما الذي يمكن أن يحصل.. بإشارة مني؟.. أقنعها بالاعتراف على كل شيء..

ولم يكن أبو عادل يجيب، على الرغم من أن النقيب كان يتوقف بين جملة وأخرى، ثم هتف متابعاً الكلام:

ـ إبق أخرس هكذا. ولكن.. ليكن في علمك إنها البداية، وسترى ما يجعلك توافق أنت وابنتك على كل شيء أطلبه منكما.

أجاب أبو عادل بأنفاس متقطعة، دون أن يرفع رأسه:

ـ لقد بيضتم وجه الشيطان، والتعاون معكم لا يختلف أبداً عن التعاون معه. هيهات.. قلت لك سابقاً، وأكررها.. هيهات أن أبيع ديني بدنياكم.. وإيماني بكفركم.. وكل ما نتعرض له.. هو بعين الله تعالى..

أمام هذا الإصرار، أطلق النقيب الثمل ضحكة مصطنعة مسعورة، وقال بتهكم:

ـ المهم عندي الآن، أن تعترف شيماء الجميلة، المثقفة.. وتعمل مخبرة لحسابي، وذلك سيكون مقدمة لإطلاق سراح الجميع.

لم يتمالك أبو عادل نفسه، فأخذ يبكي بكاءً مراً، وهو يخجل أن ينظر إلى ابنته المدماة العارية، فصرخ في وجوههم:

ـ اتركوها.. اتركوها أيها الأوغاد.. ماذا تريدون منها؟..ماذا تريدون منا؟.. ما الذي جنيناه، حتى تصنعوا بنا هكذا؟!.. قبحكم الله.. وأخزاكم.. أنتم وحزبكم الباغي.. ورئيسكم الطاغية..

لم ينتظر فريق التعذيب إشارة النقيب، بل هجموا على الأب، وأشبعوه ضرباً بالهراوات، وصفعاً بالأكف، وركلاً بالأقدام، حتى أغمي عليه.

## ٣١

فجر اليوم التالي؛ استأنف النقيب مع أبي عادل وابنته شيماء جولة جديدة، وقد أبقياهما كما كانا في غرفة التحقيق.. موثقين.. وشيماء عارية أمام أبيها.. لاتسترها حتى

ورقة شجرة. كان ليلاً طويلاً، لم يشعرا به، لأن سواد غرفة التحقيق كان قد سبقه إليها، إذ أطفئت فيها الأنوار عصر ذلك النهار. نادى أبو عادل ابنته من صميم الظلمات هامساً بصوته المتهدج:

ـ شيماء.. حبيبتي.. ما أحوالك؟..

فأنت متأوهة بهمس خشعت له العتوم:

ـ أبي.. جسمي يرتعد برداً.. وهلعاً.. سترتني الظلمة.. وغداً تفضحني أنوار النهار.. أكلوني اليوم بعيونهم.. وغداً سيلتهمونني بأشداقهم.. ويمزقونني بأنيابهم ومخالبهم.. أبي.. أنا في مهب الذئاب.. من لي سوى الله وسواك؟..

كانت شيماء ـ تسبح في أوجاع جسدها وروحها، متأرجحة بمعصميها، وقد تدلى رأسها على عنقها.. وتثنت ركبتاها..

وكان أبو عادل متهالكاً، مطأطىء الرأس.. لا تكاد ساقاه تحملان جسده، يلهث، وكأنه في أنفاسه الأخيرة..

تمتم النقيب فلاح ما أن جلس إلى مكتبه، بعدما احتسى كأساً، وأشعل سيجارة:

ـ ها هذه هي المرة الأخيرة.. كيف أختم هذا الملف؟.. أبنقطة واحدة على السطر؟.. لا.. سأضع نقطتين.. وأختم..

ثم دوى صوته بنبراته الغامضة:

ـ أي جماد أنتما؟!.. ماذا أفعل بكما حتى ترضخا؟!.. رفضتما كل ما طلبته منكما.. لا اعترافات.. لا وثائق.. لا تسليم أحمد.. لا أسماء أصدقائه.. لا تعاون معنا.. وفوق هذا أو تلك.. إبنتك ـ هي الأخرى ـ يا عبد الرزاق.. من الحزب العميل.. إذن..

خلال تلك العبارات فتحت شيماء عينيها، وهي تسمع همهمات عناصر المخابرات من حولها، فانتفضت واقفة، تحاول بروحها وأنفاسها ستر أوصالها. لم تر غير تلك العيون الجامحة بالنظرات ذات المغزى المتوحش، فجمدت ما استطاعت، وأغمضت عينيها، خجلاً من أن ترى ما كان يرى من حقيقة الفتاة الموثقة، البائسة، العارية..

وما لبث النقيب أن قطع كلامه، وغمز بعينه إلى أحد مساعديه، إلى ذلك الرجل القصير، الضخم الجثة، المفتول العضلات، ذي الكفين السميكتين، والرأس الأصلع، والعينين الصغيرتين المحمرتين..

وهمهم النقيب هاتفاً بالأمر:

ـ أنا بشوق لأن أمتع ناظري.. وليشاهد معي عبد الرزاق.. أب عطوف وفتاة عفيفة..

ابتسم المساعد ابتسامة صفراء، وراح يحرك بذراعيه في الهواء، كأنه يعد نفسه لتنفيذ أمر رئيسه بلهفة..

تقدم نحو شيماء، فضم جسدها بيديه، وهي خائرة القوى، تكاد تموت ألماً، وحرقة، وأسى، ورفضاً، وخفراً، وذعراً..

انتفضت بوجهه، فنطحته برأسها الضعيف، وعضته في خده، لكنه لم يأبه بكل ذلك..

استعطفت أباها صارخة:

- أبي.. أبي.. لا تتركني..

لكن أباها بقي مطرقاً برأسه، وقد أغمض عينيه، وهو يتمتم بالذكر والدعاء، وتلاوة آيات من القرآن الكريم، كما كان يردد، وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- لك الله يا بنيتي.. هو يحميك.. ويسترك بجناح رحمته.. أودعتك عند الجبار المنتقم.. هو كفيلك.. هو كفيلك يا شيماء..

كموا صوت شيماء بخرقة قماش لفوها على فمها الدامي، ولم يعد يدوي في أنحاء الغرفة، ولا في أرجاء المبنى.. لكنه بقي مدوياً.. يصرخ في طوايا الضمائر.. لا يخرس الزمن صداه..

فيما أمسك عنصر أمني آخر برأس أبي عادل، ورفعه بعنف. وضع أصابعه على جفني السيد عبد الرزاق وفتحهما بالقوة؛ ليرى ما كانت تتعرض له ابنته.. إنتهاك عرضه..

ـ انظر.. ابنتك عروس رجال المخابرات.. تأمل.. زغرد لها.. مبروك..

تلك اللحظة، رأى الأب المفجوع ما لا يرى؛ فرفع رأسه نحو السماء صارخاً، فجمد كل من في الغرفة كالأصنام، في أماكنهم، حتى النقيب ذو العينين الحمراوين الذي تعتع به السكر.. جمد، وانتصب واقفاً:

ـ إلهي.. هل هذا يرضيك؟.. إلهي..

وأطال نداءه «إلهي»، حتى كأنه هز بصداه أرجاء المبنى. واختلط الصدى بهزيم الرعد المدوي، الذي كان برقه اللامع يخترق نوافذ المكان، فيضيء تلك اللحظات..

صمت الصوت الداوي بنداء «إلهي»، وضاع صداه، ولم يعد يتكرر..

مات السيد عبد الرزاق حسين الموسوي.. مات الموقوف في مديرية المخابرات على ذمة التحقيق. أسلم الروح المعذبة. أغمض عينيه على صورة ابنته البائسة..

العارية.. ينهش بها بواسل الحزب والثورة. رجعت روحه إلى ربها.. وهي تنوء مثله.. تحت عبء الشكوى..

أما شيماء، فقد عصفت بها اللحظات الحاسمة، واقتلعتها الخواطر السوداء، فهامت على وجهها ذاهبة بعيداً في إغماضة عينيها الهالعتين من النور، لعلها تحظى بقبر في أقاصي الحكاية، يطوي أشلاءها بحنان ورفق..

لقد حولها الكابوس إلى مجرد كتلة منهارة، جامدة، باردة، بلا حول ولا قدرة، كتلة من اللحم والدم، تقض خاطرها مشاعر الحيرة والذهول والخيبة، والغضب.. مما ساقتها إليه الأقدار السود التي سطرتها اليد الخارجة على الله..

أشاح المساعد الذي نفذ فصل الاغتصاب بوجهه عن وجهها الذي شابه اصفرار التلاشي، وتراجع عنها مرتعد المفاصل، وخطا نحو مكتب النقيب الذي وضع رأسه بين ساعديه اللتين كان ثناهما إثر صرخة أبي عادل، وينظر إلى مايدور نظرات تشفي..

تقدم من شيماء عنصران؛ ففكا وثاقها، وابتعدا عنها..

تهالكت شيماء، وسقطت أرضاً، وجمعت أوصال جسدها الخائرة إلى بعضها بعضاً، مثلما يفعل الجنين في

بطن أمه، تكومت تحاول تقليص جذعها، ودفن أطرافها ووجهها؛ إخفاء لتفاصيلها المستباحة للأنظار..

ونظرت عن غير قصد، إذ رف جفناها كللاً من الإغماض، فلمحت ثيابها تتناثر من حولها، فزحفت تستلها، قطعة بعد أخرى، وقد تمزق معظمها، فترتديها وهي متلهفة إلى ستر جسدها المرتعد بشدة، ثم استلقت على الأرض منهارة.. بعد أن أحست بدفء الحشمة برغم برودة الثوب، وبنقاوة العفة رغم اتساخه.

وراحت تحدق إلى أخمص قدميها الحافيتين، وتشهق بالبكاء في صمت مطبق.

أمسكاها كلاً من كتف، فلم تلتفت إليهما، أخذا يجرانها جراً حثيثاً، فيما تدلت يداها الداميتان من خبطها للسلاسل، وكان وجهها يكاد يلامس الأرض وهناً.. وحياءً..

رفعت رأسها للحظة، وحدقت إلى أبيها، الذي كان لم يزل موثقاً إلى الجدار، وقد تدلى رأسه إلى الأمام، وجمد، فشيعته بنظرة أخيرة، وأسرت له في نفسها، بينما أفاضت له عيناها بدموع لاهبة:

ـ لم سبقتني يا أبي.. انتظرني.. رويدك.. أحس أنني قادمة إليك أسرع مما أتخيل..

خرجا بها من غرفة التحقيق.. واتجها بها إلى صالة، بابها مفتوح على مصراعيه الضخمين..

حدقت فيما حولها. تأكدت أنها صالة الإعدامات؛ فتمتمت بأسى:

ـ الحمد لله.. لك المنة يارب.. هنا سيكون خلاصي.. من هنا مر أخي صلاح.. بعد قليل يغلقون الملف.. هنا سيسلبونني ما بقي لي من أنفاس.. ليتهم يدفنونني في قبر أبي..

اتجهوا بها إلى ناحية في الصالة، فأوثقوها إلى أحد الأعمدة الحديدية السوداء، التي انتصب خمسة منها..

كانت آثار الدماء واضحة عند كعوب العمدان، جف بعضها فاسود، وبعضها تماوجت لطخه بين حمرة وسواد، ذلك بحسب مرور الزمن عليها.. فتلك الدماء ما كانت تمسح عن الأرض، لأنها بمفهوم الحزب والثورة دماء خونة، لذا تفوح في ذلك المكان روائح تدركها الأرواح، فتسكر على شذاها، وتنفر منها الأنوف تقززاً، لأنها لا تدرك معانيها..

السقف قليل الارتفاع، والأنوار شحيحة، والأرض حجرية سمراء داكنة، لا نوافذ تتخلل جدرانها الخشنة، لكن نسمات

الهواء تدركها وتسري خلالها، كأنها تلطف على المقبلين ليعدموا من حر الموت..

شمت شيماء رائحة غريبة، كأنها أصداء لجثث بعيدة، تبكي أو تغني، لكنها أدركت سر ذلك العطر، فأحست بنشوة لم تدرك لها تفسيراً..

تقدم منها ضابط الاعدامات سألها، فيما كانت تنظر إلى الأرض:

ـ شيماء عبد الرزاق حسين.. سيتم إعدامك.. هل تودين أن تطلبي شيئاً؟

لم تجب بحرف، ولم تلتفت، بل بقيت تنظر إلى الأرض،وقفت على بقع سميكة من الدماء، لم تجف بعد، فقالت في سرها مدندنةً:

ـ ترى دماء من تلك؟.. بعد قليل ستنتعش هذه البقع بدمي الجديد..

ابتسمت، وقالت هامسة بلهفة وارتجاف عظيمين بعدما قرأت الشهادتين.

في تلك اللحظة دوى أزيز الرصاص، وتجاوب صدى الطلقات، فشق سكون المكان..

تدلى رأس شيماء، وأخذ يتأرجح معلقاً إلى عنقها

الدقيق الطري، ثم تثنت ركبتاها، وبقي جسدها يختلج لثوان، فيما قدماها تخوضان ضاربتين في بركة دم حمراء..

بينما راح طيف فراشة بيضاء، ترفرف دائرة تحت ذلك المصباح الأصفر الشاحب؛ لتكون شاهداً أخرس على حدث يصرخ.. ويخترق صوته لحظات المدى..

فيما كان النقيب فلاح يغلق ملف التحقيق:

١ ـ تمت إحالة المدعوة حليمة نوفل جاسم وياسمين محمد جعفر إلى دائرة التسفيرات لترحيلهما إلى إيران؛ لكونهما من أقارب الدرجة الأولى لمجرمين تم إعدامهم، ولكونهم من التبعية...

٢ ـ توفي المدعو عبد الرزاق حسين بالسكتة القلبية...

٣ ـ تم إعدام المدعوة شيماء عبد الرزاق حسين؛ لانتمائها إلى الحزب العميل...

٤ ـ توفي الطفل علي أحمد عبد الرزاق بمرض الحصبة، خلال وجوده في السجن مع عائلته...

٥ ـ قتل ياسر عبد الرزاق حسين أثناء محاولة هروبه من الاعتقال...

وتم إقفال المحضر على أساس ما سبق ذكره بتاريخه (..)..

أقفل النقيب فلاح الملف، ثم جمع أوراقه، ومسح العرق البارد الذي تصبب على وجهه، وخرج، وتبعه أحد عناصره، غير ملتفت بوجهه الأصفر إلى أحد..

تقدم اثنان بقيا في الغرفة، وحلا وثاق أبي عادل، وكوماه مكانه على الأرض، ثم خرجا يجرانه جسداً بلا روح.. من غير أن ينطقا بحرف، وأغلق أحدهما باب غرفة التحقيق..

وضعوا جثتي أبي عادل وابنته، في سيارة الموت. سارت السيارة مسرعة. وبعد نصف ساعة تقريباً وصلت مع عشرات الجثث الأخرى إلى صحراء واسعة.. تملأ أشواكها الأرجاء.

كانت أشعة الشمس تتسلل إلى حبات التراب، فترتسم لها على تلك الأرض الداكنة بقع من النور، ترتعش حدودها تبعاً لاهتزاز الأشواك التي كانت تتلاعب بها نسمات الخريف الباردة..

هنا.. مقبرة جماعية تضم رفات مئات المعدومين.. قذفوا بالجثث بما بقي عليها من ملابس مصبوغة بالدم.. في حفرة أعدت سلفاً.. كأنهم يقذفون بأجساد حيوانات ماتت بوباء معدٍ..

# عروس الفرات

## ٣٢

أحس أحمد وهو يسمع هذه الأخبار المهولة، أن دماءه تغلي بعنف، كما يغلي الماء في المرجل، وتكاد تمزق شراييه وأوردته، لكنه لم يصبر وحسب، بل بدا وكأنه الصبر بعينه..

كان يتمتم بين الحين والآخر:

ـ صبر جميل.. هبني يا إلهي من الصبر ما يكفي..

لكن قلبه لم يكن ليصبر؛ كانت تتراكض نبضاته، لعلها تدرك المآسي التي كانت تجري في تتالٍ رهيب..

كما أن عينيه لم تصبرا، فكانتا تفيضان بالدمع لتغسلا ضحايا تلك المجازر..

فبكى على ياسر، ثم على صغيره علي، ثم على أبيه، وأخيراً على شيماء.. بكى بكاءين مرين..على ما فعلوا بها.. وعلى إعدامها..

وكانت روحه تهب من أعماقه ثائرة، ساعية لإدراك تلك الأرواح البريئة الهائمة على غير هدى.. هرباً من الظلم..

وكان كلما غصت زوجته الغارقة في الدموع الحارة، تمنى عليها أن تكمل رواية المأساة..

* * *

لم يبق في المعتقل سوى أم عادل وكنتها ياسمين.

الأولى فقدت رشدها.. والثانية في حالة يرثى لها؛ بسبب ما تعرضت له وعاشته في أقبية المخابرات، وبعد أن أجهضت تحت التعذيب؛ حيث أصيبت بركلة قوية من رأس حذاء أحد رجال المخابرات؛ أصابتها على بطنها، فحدث لها نزيف حاد؛ فأسقطت حملها في الزنزانة. وكانت على مقربة من الموت.

تلك الأهوال التي عاشتها ياسمين، جعلتها في توتر عصبي دائم، يبدو على معالم وجهها الشاحب، وفي حزنها الدائم، وشرودها، وذبول جسمها، ثم في ذبول عينيها اللتين جفت دموعهما، ولكنهما يشعان بالأسى الدائم.

كأن دولة الحزب لم تستنفد كل أغراضها من تلك العائلة البائسة، بل أرادت أن تنتقم منها حتى آخر فرد من أفرادها.

فبلا مقدمات، ذات صبيحة، فتح باب الزنزانة؛ حيث ياسمين وأم عادل، وإذا أحد السجانين:

ـ إلى الخارج.. اتبعاني.. ستغادران..

حاولت ياسمين سؤاله، فلم يجب، وكرر ذات العبارة.

أيقظت عمتها، وأنهضتها، ثم خرجتا من الباب، وسارتا خلف الرجل..

خرج من آخر الممشى من باب حديدي عريض. واقلتهما شاحنات مع عشرات آخرين من النساء والرجال من كبار السن..

استقرت الشاحنات في ساحة واسعة مسورة فيها مبنى واحد صغير، وقد اصطفت في الساحة عشرات من السيارات والشاحنات المدنية والعسكرية.

فتحت ياسمين عينيها للشمس التي لم ترها منذ شهور، وأمسكت أم عادل من ساعدها الأيمن، وسارت بها إلى الجمع الكبير من النساء والأطفال، وبعض الشيوخ، فوقفتا إلى جوارهم. وأخذت شيماء تتأمل تلك الوجوه التي تفيض بالحزن والبؤس والألم، حتى الأطفال كانوا هادئين على غير عادة الأطفال.

بعد دقائق، أطل الضابط، فقال للجمع بلهجة آمرة:

ـ ستكتب أسماؤكم حالاً في استمارات خاصة. ثم تتحركون باتجاه الحدود.. سنسفركم إلى إيران..

وحاول بعض الموجودين أن يستفسروه عن السبب، فلم يجب، بل كرر ما كان قاله، وسأله آخرون عن إمكانية الاتصال بأقارب لهم لإبلاغهم بذلك، لكنه قال:

ـ لا.. لا.. ممنوع.. إصعدوا بهدوء إلى هذه السيارات فور الانتهاء من إعداد الاستمارات..

خرجت قافلة السيارات من البوابة الرئيسية الكبرى، بعد التدقيق بأسماء الركاب من قبل نقطة الحراسة.. أربع عشرة من الحافلات العتيقة.. الصغيرة والكبيرة، تحمل حوالي خمسمائة شخص، هو عدد المسفرين خلال الشهر الجاري..

كان الفصل صيفا؛ فالشمس محرقة، والسماء صافية كزجاجة زرقاء، خلا بعض الغيوم المتناثرة الخفيفة، البيضاء كالثلج، ولا أثر لأسراب الطيور المهاجرة. لم تكن طيور النورس العراقية تحلق في سمائها؛ بل تقلها الحافلات قسراً؛ لترمي بها على حدود بلاد أخرى..

## ٣٣

سارت الحافلات عبر طريق طويل وملتوٍ، ينحدر، ويلتف. ثم عبرت على جسر حديدي فوق نهر عريض، سمعت ياسمين عجوزاً طاعناً في السن يقول، وقد خلا فمه من الأسنان:

ـ إيه يا فرات.. ثمانون عاماً وأنا أرتوي منك..هل لاتزال فرات الخير! هل أشرب منك ثانية!

بعد أكثر من تسع ساعات؛ توقفت القافلة أمام موقع عسكري، مدجج بالآليات المختلفة والمجنزرات الضخمة المموهة بألوان التراب..

قال الرجل الجالس مع الركاب بعدما قفز من الحافلة:

ـ هيا.. إنزلوا بهدوء.. انضموا إلى الموجودين هنا..

سألته ياسمين بحياء:

ـ أين نحن الآن لو سمحت؟

فقال لها شامتاً:

ـ أنت الآن على الحدود العراقية الإيرانية.. على الجبهة الغربية.. هناك الخميني بعد هذه المرتفعات..

نظرت بعينين ذابلتين، فإذا مئات آخرين من العراقيين

منتشرين على هذه المساحة الترابية القاحلة، التي تتخللها الصخور الضخمة العجيبة التعرجات والنواتىء..

البعض كانوا يفترشون الأرض، وآخرون بحثوا عن صخور صغيرة قعدوا على جوانبها، وآخرون وقفوا، ومنهم من كان يروح ويجيء على غير قصد.

كل الوجوه حزينة، والكلام نادر جداً بينهم، ربما لانشغالهم كلاً بما لديه من هموم..

قالت ياسمين في سرها:

ـ أرى أن لكل واحد هنا مأساة مثلي.. أين الرجال؟.. والشباب؟.. ولماذا التسفير؟.. وإلى إيران تحديداً؟ لا نستطيع حتى مجرد السؤال..

وعند أصيل ذلك النهار، هتف بعنف ضابط يحمل مكبراً للصوت بتلك الجموع؛ وكأنه يصدر أوامر عسكرية إلى مجموعة من العصاة:

ـ الآن ستتحركون من هنا.. اتجهوا شرقاً.. إلى أن تصلوا إلى إيران.. لا مكان لكم هنا.. إذهبوا إلى الخميني.. إذا كنتم تحبونه.. إذهبوا إليه..

سارت قافلة المهجرين الجديدة شرقاً باتجاه إيران.. مشياً على الأقدام.

كانت، ككل مرة، خالية من الشباب، لقد اقتصرت على الأطفال ذوي الوجوه الشاحبة، والعيون الحزينة، والنساء اللواتي اعتصر قلوبهن الألم والرعب، والشيوخ الذين وهنت أجسادهم تحت ضغوطات المساءلة والتحقيق. أما شباب تلك العوائل المهجرة، فقد أبقت عليهم السلطة في الاعتقال، أو أعدموا، أو اختفت آثارهم، وتبخرت أخبارهم.

سارت القافلة شرقاً..

متاعهم أغطية وحصائر، وأوعية المياه. وكانت بعض النساء يحملن الأطفال الرضع، والصغار الذين لا يستطيعون السير خلال تلك الأرض الشائكة..

انتشروا على سفوح التلال، فغطوها كأرتال الجراد، وكانوا يتجاورون مجموعات مجموعات، ويساندون بعضهم بعضاً في أحوال العقبات والتعثر، أو الإجهاد الشديد..

أمسكت ياسمين عمتها أم عادل، وسارت بها وسط إحدى المجموعات، وكانت الثانية ساهمة ومنقادة، تجر أقدامها جراً..

انتشرت على سفوح تلك التلال حجارة تنفر من التربة، أو تفرق فيها مطلة برؤوسها، وأشواك يابسة تخدش من

يمسها خلال سيره، وبعض الأعشاب اليابسة المتكاثفة كالهشيم الذي يحلم بالنار..

بعد ساعات قليلة، بلغت القافلة الزاحفة نحو السفوح الشرقية التي تتخللها الصخور والمرتفعات، فتباطأت عند تلك التلال، وبدا الإجهاد على معظم السائرين، فتنادوا وتوقفوا يستريحون..

كانت الشمس تلك اللحظات تميل نحو الغروب، وقد أخذ يتخلل اصفرارها حمرة وردية قانية، وأخذت تتدرج للمغيب، وسرعان ما توارى قرصها عن الأنظار خلف التلال، لكن نورها كان ينير تلك السحب البيضاء المنتشرة على صفحة السماء التي لا حدود لها..

انتشر بعضهم في المكان يستريح.. متخذاً التربة فرشاً والصخور وبعض الحصر، وراح يتناول ما لديه من بقايا طعام.

جرت ياسمين أم عادل؛ فسارتا مع القافلة، وكانت تخاطبها لعلها ترد، ولكن دون جدوى..

شلت السيقان من طول المسير، وتعبت الأقدام من التعثر والخبط على الأشواك والحجارة ونتوء الصخور،

وكلت السواعد من حمل الأمتعة والأطفال، وامتلك النعاس الأجفان، وطفت الخشية على النفوس والأفئدة.

قال طفل في الثالثة من عمره لياسمين، وقد شرد عن أمه:

ـ أين ماما.. أنا عطشان.. وجائع.. وخائف..

احتضنته لتهدىء من روعه؛ فغفا على كتفها، وأخذت تمسح شعره الأسود المالس بكفها، وسارت به باحثة عن أمه، ولم يلبث أن أفاق وهتف:

ـ ها هي.. ماما..

وجرى بقدميه الصغيرتين حافياً إلى ذراعي أمه التي كانت تتلفت في الأنحاء باحثة عنه.

## ٣٤

لاحت في الأفق القريب مجموعة من الرجال، بدا أنهم مسلحون، أخذوا يتجهون نحو المكان، متدفقين من كل اتجاه..

خلال دقائق، تمكنوا من ضرب طوق محكم حول القافلة..

كانوا مسلحين بالبنادق والقاذفات والقنابل اليدوية، وأمشاط محشوة بالرصاص، عُلقت على أحزمتهم العريضة..

كانت بزاتهم ولغتهم تدل على أنهم من الأكراد..

بادروا كل من صادفوه بالشتم، والضرب بأعقاب البنادق، وبالقبضات، ورؤوس الأحذية السميكة، لم يفرقوا بين شيخ، وطفل، وامرأة..

احتضنت ياسمين عمتها أم عادل، وقبعت تنظر، وتصغي إليهم وهم يتحدثون بلغة كردية، ولكن بعضهم كان يتحدث بلهجة عراقية بالكاد تفهم بعض كلماتها وعباراتها:

ـ إلى إيران تذهبون يا خونة؟..

ـ هاتوا نقودكم.. سيعطيكم الخميني نقوداً..

ـ أنت أيها العجوز الخرف.. هات هذه السن الذهبية.. لن تنفعك في القبر..

ـ تعالي معي يا حلوة..

وإذ بقائدهم يصيح بصوت هز المكان:

ـ لا تتحركوا جميعاً.. من يأت بحركة يمت..

زادت القلوب ارتعاداً، وتعلق الأطفال بأثواب أمهاتهم، أو بمن صادفوه قريباً منهم..

استأنف المسلحون اندفاعهم وهم يمرون على الجموع،

سالبين كل ما لديهم، بدءاً من أقراط الصبايا الصغيرات وحتى الأغطية. وحين انتهوا من جولتهم.. اقتادوا مجموعة من الشابات معهم.. كأنهن سبايا، ولم تنفع أية محاولة لمنعهم. أخذوا من شاؤوا من الشابات، مشدودات من ملابسهن أو شعورهن..

كانوا يطلقون النار فوق رؤوس البائسين؛ إذا ما حاول أب أو أم اعتراض من يريد اختطاف ابنتهما. لقد بلغ عدد الشابات المختطفات سبعاً..

نظرت ياسمين مرتجفة، وقالت في نفسها:

ـ مسكينة يا شيماء.. اختطفوك بأسوأ مما جرى.. أنت كنت إزاء المنكوب أبيك.. أمام عينيه..

واعتراها هول يعجن نفسها عجناً، فانفجرت في عينيها الدموع مرة أخرى.. بعد أن جفت..

انسحب المسلحون من حيث أتوا..

وهتف قائدهم قبل الرحيل:

ـ نحن من أكراد إيران.. قولوا للخميني أننا يدا بيد مع حكومة العراق لندمره..

بعد ساعات من الاضطراب، والنحيب، واصلت القافلة

المفجوعة مسيرها المتخبط في رحلة المجهول، والكل في ذهول..

اضطرت ياسمين إلى ترك عمتها تسير لوحدها مؤقتاً، ملبية طلب إحدى النساء بالمساعدة، فتخلفت أم عادل عن الركب قليلاً..

تلك المرأة، كانت أماً لخمسة أطفال، أكبرهم لم يتجاوز التاسعة، وأصغرهم بلغ الشهر فقط، ولد في السجن، ومعهم جدهم العجوز الذي لا يكاد يقوى على المشي، ولا تكاد تحتمله قدماه، فاهتمت أم علي بطفلين من أولئك الأطفال، أحدهم بعمر صغيرها القتيل علي، فرأت فيه شجونها وسلوتها.

قال لها ذلك الطفل:

ـ لماذا دمعت عيناك وأنت تنظرين إلي؟

أجابت، وهي ممسكة بيده:

ـ كان لدي طفل بعمرك.. ذهب في سفر.. لن أراه أبداً..

فعاودها الطفل متسائلاً:

ـ ما كان اسمه؟..

فتنهدت وهمست:

ـ كان اسمه علي.. حبيبي.. علي..

فعلق الطفل قائلاً:

ـ يا الله.. وأنا اسمي علي..

دمعت عيناها أسى، وشردت بها الخواطر، وهي تقبله على شعره الناعم، وعادت فهمست لنفسها:

ـ علي.. يا حبيبي يا علي.. يا أملي الضائع في مهب الريح العاتية..

ثم راحت تتابع سيرها ممسكة بيدي علي وأخيه، حتى لا يتعثرا خلال تلك الطريق الوعرة، وأمهما خلفها..

كانت النسمات الخفيفة المنسابة، تداعب صفحات الوجوه، وتعبث بخصلات الشعر السابلة على جبين علي، وتجفف من دموع ياسمين التي تتخلل جفنيها، كلما نظرت إلى ذلك الطفل.

قال لها الطفل الثاني، وكأنه غار من أخيه:

ـ أنا اسمي أحمد.. هل عندك طفل اسمه أحمد؟.. سافر.. ولن يعود؟..

نظرت في عينيه العسليتين الحزينتين، وقبلت شعره الأشقر الجعد، الطويل الخصلات، وقالت بتأثر:

ـ زوجي.. اسمه أحمد.. لكنه سيعود.. إن شاء الله..

كان ذلك الصغير يتوقف بين اللحظات، ليلتقط حصاة،

أو حجراً صغيراً، أو عشبة يابسة، فيتأمل ما التقطه قليلاً، ثم يرميه، وكأنه يبحث في هذه الأرض الخالية عن شيء أضاعه ذات يوم.

فجأة، دوى صوت عنيف، رهيب، اهتزت له الأرض، كما لو أن زلزالاً قد أصابها، وتطايرت فتافيت الصخور، والحجارة، والحصى، فانخلعت القلوب في الصدور، وصمت الآذان.. وإذا سحابة من الغبار الكثيف تغشي العيون، وتعيق الأنفاس، ثم تعلو في الفضاء، ذاهبة مع نسمات الظهيرة الحارة..

تعالت صرخات ثلاثة من الرجال:

ـ لقد انفجر في الطريق لغم.. من شبكة الألغام، التي زرعتها القوات العراقية.

كسر جدار الصمت والوجوم الذي رافق تلك المسيرة المنكوبة منذ بداية رحلتها، وحل محله جدار من الرعب والهلع، وزوغان العيون الحائرة، وانقلب كل شيء رأساً على عقب.. وسط تعالي صراخ الأطفال والنساء. وهام من أفقدهم الدوي اتزانهم، على وجوههم في الوديان المجاورة هلعاً من المجهول المتفجر، وحدثت حالة رهيبة من الفوضى والاضطراب بين المهجرين..

سقطت ياسمين على الأرض متعثرة دون أن تحس، وانفلت الطفلان اللذان كانت ممسكة بيديهما، وأضاعت صوابها للحظات. ولما استعادت اتزانها، شاهدت بعضهم يسارع باتجاه مصدر الانفجار، فأمسكت بيدي الطفلين، وسارعت الخطى مثلهم، وكانت تحس أن أمراً رهيباً ينتظرها، فكانت تقول بصوت مسموع:

ـ يا ويلي.. استر يا رب..

على مشارف ذلك المكان ـ مكان الانفجار ـ هتف بها الطفل أحمد:

ـ انظري.. أشواك حمراء.. حجارة حمراء.. انظري..

وتناول حجراً صغيراً، ناولها إياه، ما أن لمسته حتى هتفت مذعورة تاركة ما في يدها:

ـ يا إلهي.. دماء.. دماء..

وتركت الطفلين، وجرت، وهما يجريان خلفها، وهي تصرخ:

ـ يا إلهي.. هذه أشلاء.. قطع لحم بشرية دامية.. تناثرت في المكان..

كانت الجموع تتحلق هناك، حول مكان الانفجار، فتقدمت ياسمين، ووقفت مبغوتة إزاء تلك الأجساد الممزقة

تمزيقاً مريعاً، وشرع البعض يتبرعون للقتلى بقطع من الملابس والأغطية، فيسترون أشلاءهم بها، فيما توجه آخرون يحاولون ما أمكنهم إسعاف الجرحى..

صراخ وبكاء، وأنين، وتأوهات تتفتت لهولها القلوب..

هتفت أم علي من شدة لوعتها:

ـ يا إلهي.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. ماهذا المشهد الرهيب!

صرخات حملتها نسمات الظهيرة الحارة، واحتملت رائحة دمائها التي لطخت الأرض..

تقدمت ياسمين تشق ازدحام الجموع..

ويا لهول ما رأت!! صرخت معولة مصعوقة بأعلى صوتها:

ـ عمتي؟!.. أم عادل؟.. يا ويلي.. هي.. هل كتب علي أن أعيش مصيبة أخرى؟.. وقد خلفت ورائي مصائب السجن الكبيرة؟!.. يا إلهي..

كان جسد أم عادل الممزق.. واحداً من الأجساد الثلاثة المطروحة على الأرض، والتي تحولت إلى كتلة من اللحم المتفجر دماً..

هبت ياسمين، تروي فصول حياة عمتها، وصوتها يشق

الفضاء.. وقد جلست على الأرض، وهي تبكي وتصرخ، وتهيل التراب على رأسها، وتلطم خديها، وهي محتارة بين ما لا تصدقه عيناها والواقع الرهيب الماثل أمامها، وقد أهلع المنظر قلبها، وأفقدها صوابها:

ـ هل هذه حقاً نهاية المرأة التي أرادت أن تعيش سنواتها الأخيرة في كنف أولادها.. وسهرت على العناية بهم.. حتى تخرجوا من الجامعات، وشقوا طريقهم في الحياة؟!.. وهل قدر لهذه الأم التي كانت محاطة بدفء بيتها وزوجها ورعاية أولادها؟.. وزوجاتهم؟.. وبهمة الأطفال الذين يملأون جوانحها حباً وسعادة؟.. هل قدر لها أن تموت وحدها على التلال وبين الصخور؟ وبهذه الطريقة؟.. تقطع إرباً؟!.. والناس من حولها يتفرجون؟!..

قالت ياسمين ذلك، وهي تندب متحسرة، وقد وصلت إلى ذروة حيرتها وانهيارها، فتسمرت إلى جوارها مصرة ألا تفارقها..

لكنها أذعنت في النهاية، فاستعاذت بالله، وراحت تتلو عليها آيات قرآنية، وتركت ذلك الجسد المطروح على بساط من الدماء والتراب، لمواراته في جدثه الدارس، كما الجسدين الآخرين؛ إذ لم تكن تمتلك حلا آخر، فهل تبقى

إلى جانب الجثمان التعيس الحظ؟!.. وإلى متى؟!.. أم هل يمكنها حمله إلى إيران؟.. أو إعادته إلى العراق؟..

فبادرت اثنتان من النساء إلى الأخذ بيديها، بغية إكمال مسيرة المجهول، حيث سارت معهما، وكانت لا تكف عن التلفت وراءها، كأنها لا تريد فراق جثمان عمتها الممزق..

فيما تخلفت جماعة من شيوخ القافلة ونسائها لدفن القتلى..

قام شيخ يناهز السبعين من عمره، فعلت في وجهه السنون من الأخاديد فنوناً، لكنه احتفظ بقوة وصلابة، تدل عليهما عقدة دائمة بين حاجبيه الغليظين، ونظرة ثاقبة تشع بريقاً في عينيه الملونتين.. قام يساعده رجلان بحفر ثلاثة أجداث، إلى جانب الطريق، في حضن صخور دهرية بيضاء، موشحة بالرمادي الداكن، بدت وكأنها سحابة خريفية، تعبت من السبحان في الفضاء، فرست على الأرض، ونبتت عند أصولها الأشواك ذات الزهر البنفسجي.

ثم صلوا على الأجساد الممزقة، وأهالوا عليها التراب والدموع وطلبات الرحمة والغفران.. وقرأوا الفاتحة عن أرواحهم..

بعد ذلك تهادوا خلف القافلة، وهم ينفضون أيديهم، والدموع تفيض في مآقيهم حرى.

مر الوقت بطيئاً، كانت خلاله المجاميع، تجرجر الأقدام متداعية في مسارها نحو الشرق، نفد الزاد والماء، ولم يبق معهم غير أنفاسهم اللاهثة، وعيونهم البريئة الحائرة..

ما هي إلا كيلومترات معدودات، حتى لاح أفراد حرس الحدود الإيراني.. فهرولوا، وأقبلوا نحو الجموع لمساعدتهم، وجاؤوا معهم بحمالات نقلوا عليها الجرحى والعجز، كما وزعوا الماء والخبز واللحوم المعلبة.

وبعد استراحة دامت لساعات، في تلك الساحة الفسيحة، وقد أحضرت لهم بعض الحصر والوسائد؛ رقد البعض، والبعض استراحوا، ودبت الحيوية في نفوس الأطفال، وأجسادهم، إذ أحسوا بالأمان، فانطلقوا يتراكضون ويلعبون متضاحكين.. دون أن يعوا شيئا من الكارثة أو حجمها..

وبعد الظهر، حضرت حافلات عسكرية؛ فنقلت الجميع إلى المخيمات التي خصصت لهم.

## ٣٥

فقدت ياسمين القدرة على الكلام، كانت تجهش بالبكاء خلال كل حادثة ترويها، في حين وضع أحمد يديه على وجهه محاولاً التخفيف من ثورته؛ حيث كان يقاطعها مراراً بالقول:

ـ ليتني كنت معكم فأنال مما نالكم نصيباً من المأساة.. لقد أصبتم بها كلها.. وحيدين من دوني..

وراح يكفكف دموعه، ويعود بنفسه الممزقة إلى لغة الصبر والجلد..

وضع رأسها الذي ناء بالخواطر على صدره، وهو يمسح بيده المرتعشة ثورةً على شعرها، الذي تبعثرت خصلاته على جبينها الآخذ في الإشراق.. رويداً رويداً. قبلها بشوق وعطف على رأسها، وضمها بذراعيه؛ فأحست بالأمان الذي افتقدته طوال أيام التعذيب، والعذاب، وشعرت كأنها في مهب مخاض لطيف اللحظات، سوف تولد بعده من جديد.

رفعت رأسها، والتفتت نحوه، فالتقت عيناهما، وامتزج بريقها، مشكلاً ومضة جديدة، فجراً جديداً، إشراقة شمس بعد ليل طال..

قالت ياسمين، وهي تبتسم:

أحمد.. ماذا سنفعل؟!

قال أحمد هامساً:

ـ لم أسمعك.. يا حلوة الروح.. أخذني وجهك الساحر.. إلى عالم آخر.. مليء بالأنوار، والأمل..

كانت عروقهما الظامئة تصرخ لاهثة، وهي تبحث عن دفقة حب، تمتزج مع ذلك الدم البائس، الذي أنهكه التطواف في تلك الشرايين الحزينة.. كانا يريدان أن يستجمعا كل همسات الحنان، وترانيم الحياة التي أوشكت أن تفر من بين نبضات قلبيهما المتعبة.

وبدأت أسراب الطيور المهاجرة تعود إلى تلك الأحداق التي عكرتها طويلاً ظلمات القلق، لتسكب فيها من صفائها الأول، ومن ذاك البريق الحلو الغامض.

كان أحمد يبث في زوجته الصبر والثقة، والإيمان؛ فراح يحادثها وهو يكبت آهات كالجمر في صدره:

ـ فداء العقيدة يا ياسمين.. لقد ذهبوا راضين مرضيين.. إلى باريهم.. ذاك هدفنا في الحياة.. إن فراقهم يكوي قلبي.. هم أهلي.. هم كل ما كنت أملك.. النار في صميم قلبي.. لن تنطفىء أبداً.. فقدتهم كلهم.. واحداً بعد الآخر.. إلا أني

لن أجزع.. لأن الجزع لا يعيد أحداً منهم.. ولا يرجع حقاً مضيعاً..

فتمتمت بصوت مفعم بالألم:

ـ ما الذي تقوله يا أحمد؟!.. لقد فقدنا كل شيء.. الأهل والأحباب والأولاد.. حتى الوطن فقدناه..

فشد على ذراعيه في ضمها وقال:

ـ إنه طريقنا يا ياسمين. إن دماءنا لن تجف يوماً. كفكفي دموعك يا عزيزتي.. ولنبدأ طريقنا.. طريق الحياة.. من جديد. أنا بقية ذلك السيف الذي فله الطغيان.. وسحقه تحت نير حديده وناره. لكن! تأكدي أنه سيبقى مشرعاً. سيبقى سيف السيد عبد الرزاق الموسوي.. مشرعاً.. يحمله هو.. بسواعد أحفاده. سيبقى عبد الرزاق حياً.. بحفيده علي.. الذي سيولد من جديد..